المعدان أو سكان الأهوار

■ بقلم : ولفرد ثسيگر
ترجمة : باقر الدجيلي

مقدمة

في صيف عام ١٩٥٣ ألقىٰ ولفرد ثسيگر[1] Wilfred Thesiger محاضرة علىٰ أعضاء « الجمعية الآسيوية الملكية » في لندن عنوانها : المعدان أو سكان الاهوار الجنوبية في العراق ، ونشرها في مجلة[2] الجمعية في عددها الصادر خلال شهر كانون الثاني عام ١٩٥٤ . وقد درس منطقة الأهوار دراسة وافية وبحث أحوال المعدان الاجتماعية والاقتصادية ، بحثاً مستفيضاً واكتسب خبرة واسعة ، نالها عقب زيارات متعدده لهم خلال ١٩٥١ ـ ١٩٥٣ ، وبحث في النباتات والحشائش التي تنبت في الاهوار ، متحرياً عن اسمائها المحلية ومحققاً اسماءها العلمية ، وقد جمع منها حوالي ثلاثين جنساً قدمها الىٰ قسم التاريخ الطبيعي في المتحف البريطاني بلندن . كما تناول دراسة الحيوانات الموجودة هناك ، فذكر اسماءها المحلية

(١) ولد عام ١٩١٠ في المفوضية البريطانية في أديس أبابا ، وهو أكبر أولاد النبيل ولفرد ثسيكر الوزير البريطاني في الحبشة آنذاك ، وقد نال وسام الخدمة الممتازة . D . S . O وهو احدىٰ الأوسمة الرفيعة في بريطانية يمنح عادة لضباط الجيش البريطاني . وقد تلقىٰ دراسته الثانوية في مدرسة ايتون المشهورة ، والعالية في جامعة أكسفورد . وفي عام ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ قام بدراسة أحوال منطقة داراكيل في الحبشة ، والتحق في الخدمة السياسية في السودان وتولى ادارة مقاطعة دارفور الشمالية . وفي ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ عيّن ضابطاً في الجيش البريطاني ورابط في الحدود السودانية ، وتطوع بعدها في قوات الحبشة الوطنية ضد القوات الايطالية . وارسل بمهمة خاصة الىٰ سورية ، واستأنف دراسة اللغة العربية في دمشق . واشتغل كذلك في الصحراء الغربية .

وفي خلال ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠ قام بزيارة منطقة الربع الخالي والحجاز وحضرموت ومحمية عمان ؛ ونال مدالية الجمعية الجغرافية في لندن بعد زيارته لهذه المناطق ، وألقىٰ علىٰ أعضاء الجمعية الآسيوية الملكية عقب ذلك محاضرة عن بدو جنوب الجزيرة ، وسافر خلال ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ الىٰ ايران والعراق وباكستان وافغانستان . وفي هذه الفترة كتب رسالته عن « المعدان » هذه التي آثرت ترجمتها .

وقد تعرفت عليه بحكم وظيفتي يوم كنت قائمقاماً لقضاء الشطرة سنة ١٩٥٠ ؛ فقد زارني طالباً مني تسهيل مهمته في زيارة الاهوار الواقعة في منطقة البدعة ، وقد فاتحته برغبتي في ترجمة محاضرته هذه فوافق مشكوراً بكتابه المؤرخ في ٥ تموز سنة ١٩٥٥ .

ـ المترجم ـ

(٢) Royal Central Asian Society, January, 1954

والعلمية لا سيما الطيور المهاجرة اليها والمستوطنة فيها .

ولم يكن المستر ولفرد ثسيگر أول أجنبي زار منطقة الاهوار وتوغل فيها ؛ بل سبقه آخرون . ففي عام ١٩٢١ زارها كل من مستر بكستون A . p Buxston ومستر داوسن . V . H . W . Dawson ، وكتبا بحثاً قصيراً عن عرب أهوار جنوب ما بين النهرين(١) نشر في مجلة المتحف الهندي ، تناولا فيه حياة المعدان الاجتماعية والمعاشية . وفي عام ١٩٣٤ زارها مستر هنري فيلد العالم الانثروبولوجي الامريكي المعروف ، ودرس سكانها لا سيما قبيلة ألبو محمد الساكنة في الاهوار الشرقية ، ووضع كتاباً(٢) عن سكان منطقتي الفرات ودجلة الساكنين جنوب العراق نشره عام ١٩٤٩ ، ساهمت في كتابة فصل منه السيدة دراورز E. S. Drowers خاص بـ« عرب هور الحويزة » . ويتضمن أكثر الفصل دراسة زرّاع منطقة ناحية الكحلاء من قبيلة ألبو محمد . وقد نشر مستر فيلد عدة كتب في السنوات الاخيرة عن العراق ، منها كتاب « عرب أواسط العراق » Arabs of Central Iraq.

ان دراسة أحوال المعدان والوقوف على طراز معيشتهم وحياتهم ليست من الموضوعات المجهولة لدى المشتغلين بالادارة أو الساكنين على مقربة منهم ؛ الا انها قد تكون مجهولة لدى بعض المثقفين من أبناء المدن وسكان المناطق الشمالية ، وقد تصبح غريبة لدى الاجيال القادمة اذا ما انتظم الري في العراق وتطورت حياة السكان الاقتصادية ، وزالت أكثر معالم الاهوار ، وانتقل سكانها الى حياة جديدة لم يألفوها من قبل . وقد يتعذر على الباحثين في المستقبل الاطلاع على طراز حياتهم ؛ ولذلك فقد ازداد الاهتمام بدراسة أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية . ولهذا السبب أرسلت هيئة البحوث العلمية للجامعات الالمانية الحرة في بون سنة ١٩٥٥ البروفسورة زيغريد ويستفال هلبوش Dr. Sigrid Westphal Helbusch وزوجها الى منطقة لواء العمارة للقيام بدراسة حياة المعدان . وبحكم وظيفتي تعرفت عليهما وقدمت اليهما المساعدات التامة عملاً بتوصية وزارة المعارف ، وحلا ضيفين مكرمين في دار الشيخ عبد الله السكر لمدة شهرين كاملين في منطقة « الصيقل » التي تقع على

---

(١) The Marsh Arabs of Lower Mesopotamia

(٢) The Anthropology of Iraq part I, Henry Field

راجع صفحه ٣٦٨ ـ ٤٠٦ الخاص بعرب هور الحويزة . ويتألف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء ، يبحث الاول عن سكان أعالي الفرات (١٩٤٠) ، والثاني عن سكان شمال الجزيرة (١٩٥١) والثالث عن سكان كردستان مع ذكر النتائج (١٩٥١) .

حافات الاهوار الوسطية، وتجولا في منطقة الاهوار كلها، وزارا منطقة «الصحين» أيضاً.

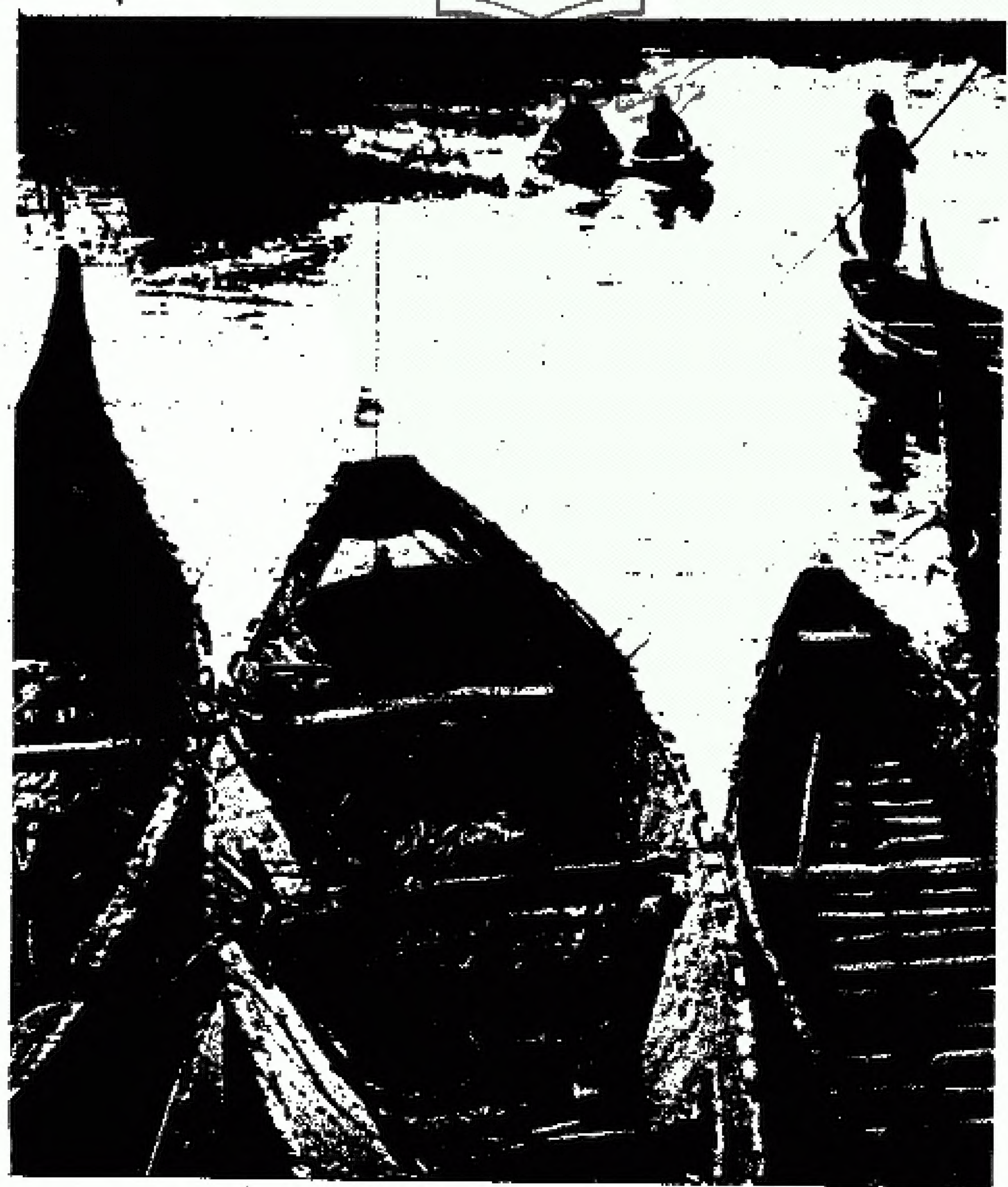
وآخر من قام بدراسة الاهوار السيد شاكر مصطفىٰ سليم؛ فقد أعد بحثاً «عن النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لمنطقة الجبايش» لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة لندن. وقد ترجمه الىٰ اللغة العربية وطبعه في مجلدين، اخرج منه المجلد الاول بعنوان: (الجبايش: دراسة انثروبولوجية لقرية في اهوار العراق).

وأرجو أن أكون قد وفقت لترجمة محاضرة مستر ولفرد ثسيگر، وان تنال من المتتبعين والراغبين في الاطلاع علىٰ سكان الاهوار الاهتمام الذي تستحقه.

العمارة ١ / ١ / ١٩٥٦

باقر الدجيلي

قائمقام قضاء مركز العمارة



■ المشحوف، الوسيلة المعتمدة لدى سكان الاهوار قبل التجفيف

المعدان أو سكان الاهوار في جنوب العراق

تبلغ مساحة أراضي الاهوار[١] التي تقع في جنوب العراق حوالي ستة آلاف ميل مربع؛ وتشتمل على منابت واسعة للبردي، ومستنقعات ومجاري[٢] مياه ينتشر فيها عدد من الجزر الصغيرة والقرى القليلة، وعلى حقول لزراعة الرز. وهذه المساحات الواسعة المغمورة بالمياه والأوحال والمكسوة بالنباتات المتشابهة، والموبوءة بالبق والبعوض، مكان طبيعي، حيث أوجد الانسان له وسائل بدائية للمعيشة تنسجم هي ومحيطه. ويقطن سكان الاهوار المعروفون بالمعدان في صرائف من البردي، قائمة على جزر أو «چباشة» ترتفع عن مستوى سطح الماء مصنوعة من البردي والقصب المتراكم بعضه فوق بعض. ويتنقلون في هذه الاهوار بقوارب مزفّتة، ويعيشون في الاعم الاغلب على صيد الاسماك وحليب الجاموس. والحياة في منطقة الاهوار قاسية، باردة في موسم الشتاء، وحارة رطبة في موسم الصيف وهي منطقة مقفلة؛ ويصعب التوغل فيها حيث مجاري المياه الضيقة الخفية التي ينبت البردي على جانبيها، ويرتفع في علوه الى عشرين قدماً تقريباً.

وفي منطقة الاهوار فصلان واضحان هما: فصل الصيف وفصل الشتاء. والخريف والربيع فصلان قصيران، لا يستديم كل واحد منهما أكثر من شهر واحد. ويبدأ الصيف في شهر مايس وينتهي في أوائل شهر تشرين الاول. وتهطل الامطار[٣] عادة في فصلي الشتاء والربيع. وتشتد درجة الحراة[٤] في الصيف جداً؛ وتجعل زيادة الرطوبة في هذه الاهوار الحياة غير مريحة تماماً. وكثيراً ما تكون أيام الشتاء دافئة فتبلغ درجة الحرارة (٨٥)، والليالي باردة دائماً، وحينما تهب الرياح الشمالية من جبال كردستان المكسوة بالثلوج يصبح البرد شديداً. وقد يبلغ التفاوت في درجات الحرارة بين الليل والنهار (٥٥). ولا يوجد من الوقود غير البردي و«المطّال» المصنوع من فضلات الحيوانات. ومع ان بيوت المعدان لا تتسرب اليها

---

(١) يطلق عرب جنوب العراق على المستنقعات (Marshes) اسم هور؛ وهو تعبير جامع يدل على مساحة المستنقعات الدائمية والموسمية والمياه القائضة، ومنابت البردي أيضاً. ويطلقون على البركة (Lagoon) اسم «البركة».

(٢) يطلق المعدان على مجاري الماء العميقة هذه اسم «كاهن».

(٣) كان معدل سقوط المطر منذ عام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ في لواء العمارة ٨,٣ عقدات، وكان في الشعيبة منذ عام ١٩٢٣ حتى ١٩٣٦ ٥,٧ عقد.

(٤) سجلت مقاييس الحرارة في تموز سنة ١٩١٦ درجة الحرارة العظمى قرب الكوت (١٢٨) درجة، وفي الشعيبة والديوانية (١٢٤) درجة خلال شهر آب من السنة نفسها، بينما كانت نسبة الرطوبة حوالي ٥٠ بالمائة مصحوبة بارتفاع عال بدرجات الحرارة وصلت بمقياس حرارة الانسان. Wet - bulb

مياه الامطار عادة الا انها باردة ومعرضة في موسم الشتاء الى التيارات الهوائية .

تقسيم الاهوار :

ان هذه الاهوار تمتد من مدينة العمارة الواقعة على نهر دجلة جنوباً ومن مدينة سوق الشيوخ الواقعة على نهر الفرات الى مدينة القرنة شرقاً حيث يلتقي النهران ويشكلان شط العرب . ويمكن تقسيمها الى :

١ ـ الاهوار الشرقية وهي التي تقع بين نهر دجلة والحدود الايرانية .

٢ ـ الاهوار الوسطية التي تقع بين نهري دجلة والفرات .

٣ ـ الاهوار الجنوبية التي تقع جنوب نهر الفرات حوالي بحيرة الحَمّار [١] .

وقد تكوّنت هذه الاهوار من جراء تجمع مياه الفيضانات ، وبارتفاع درجات الحرارة في أشهر آذار ونيسان ومايس تذوب الثلوج المتراكمة فوق جبال تركية وايران وتسبب فيضانات عالية . وفي شهر حزيران يبدأ انخفاض مناسيب المياه في نهري دجلة والفرات ، ويصل هذا الانخفاض في شهري ايلول وتشرين الاول الى درجة كبيرة ، ثم تعود مناسيب المياه بالارتفاع ، وترتفع عادة في شهر تشرين الثاني بعض الارتفاع ، وتواصل ارتفاعها خلال موسم الشتاء كله . وقد تحدث زيادة قليلة ومفاجئة في فصلي الشتاء والربيع بسبب هطول الامطار بغزارة في المناطق الشمالية . وغالباً ما يقع فيضان نهر دجلة العالي قبل شهر واحد من فيضان نهر الفرات من جراء ذوبان الثلوج . وتسحب الاهوار الشرقية والوسطى مياهها من نهر دجلة . ولقد قدّر ان حوالي ٨٠ بالمائة من المياة التي تمر بمدينة بغداد تنساب الى هذه الاهوار [٢] . أمّا نهر الفرات فتنساب مياهه جنوب مدينة الناصرية بقنوات متعددة ، ويتم تصريفها تدريجياً في هور الحمار ، ثم تنساب كلها الى شط العرب مارة بقناة (كرمة علي) التي تقع على بعد بضعة أميال من شمال مدينة البصرة . اما المياه التي تسير في مجرى الفرات القديم ابتداء من مدينة سوق الشيوخ حتى مدينة القرنة فانها تنساب من الضفة اليمنى لنهر دجلة . وتتكون أيضاً بعض الاهوار الدائمة في نهاية الغراف الجنوبية الواقعة جنوب مدينة الشطرة كما تتكون بعض الاهوار الموسمية الواقعة في شمال مدينة العمّارة من جراء فيضان نهري

---

(١) يطلق المعدان على القسم الاكبر من بحيرة الحمار اسم هور « السناف » ، وعلى قسمه الشرقي اسم هور « الحَمّار » .

(٢) لقد خمّن تصريف نهر دجلة في مدينة الكوت بمثل تصريفه في مدينة بغداد . وفي جنوب الكوت يسحب نهر البتيرة وحده ٢٦ بالمائة ، وشطا الغراف والكحلاء ٣٥ بالمائة . وفي جنوب العمارة يسحب نهر الطبر والمجر الكبير والمجرية كلها ٢٠ بالمائة ، فلا يتبقى من المياه في عمود نهر دجلة الا ١٩ بالمائة .

الطيب والدويريج اللذين ينبعان من الجبال الايرانية[١]. وفي شهر نيسان ومايس تمتد مياه فيضانات دجلة والفرات الى الصحراء المجاورة وتغطي مساحات كبيرة من الاراضي ابتداء من مدينة الكوت حتى ضواحي مدينة البصرة. وحينما تنحسر المياه عن الاراضي الواقعة حوالي الاهوار يظهر مرة أخرى سهل ترابي طيني تشققه حرارة الشمس ويجوبه بعض الرعاة من العشائر المجاورة أو يزرع بعض مناطقه زرّاع الحنطة والشعير[٢]. ان هذه المنطقة ترتبط بالاهوار ولكن ليست جزءاً منها.

ان أراضي العراق الجنوبية منبسطة؛ فلا ترتفع مدينة البصرة عن مستوى سطح البحر الّا سبعة أقدام، والقرنة تسعة أقدام، والناصرية ستة عشر قدماً، والعمارة ثلاثين قدماً، مع ان الاخيرة لا تبعد أكثر من مائة ميل عن مدينة البصرة. وقد خمنت، بدليل العلامات الموجودة على سيقان البردي في الاهوار، ان ارتفاعاً وهبوطاً في مستوى المياه قد يبلغ احياناً اربعة أقدام، وفي موسم الفيضان العالي تنغمر أكثر الاراضي المجاورة للاهوار بصفحات مياه واسعة، وغالباً ما يبلغ عمقها حوالي ستة أقدام في الاماكن المنخفضة. هذا من ناحية، اما من الناحية الثانية فان قسماً كبيراً من الاهوار التي يشح فيها الماء، كما حدث في عام ١٩٥١، يصيبها الجفاف خلال شهري ايلول وتشرين الاول. وفي خريف تلك السنة نفسها كان من الممكن قطع الاهوار الوسطية من الشمال الى الجنوب عبر سلسلة من البرك الصغيرة ابتداء من «الديمة» حتى «الزجري». ويصبح السفر متعذراً جداً بالقوارب، ومن الصعب اجتيازها مشياً على الاقدام خلال الاوحال ومنابت البردي. وينتقل المعدان في قواربهم من مكان الى آخر في الهور. ويستطيعون ان يتوغلوا في أكثر مناطقه اذا ما ارتفعت مناسيب الماء؛ وهم مهرة في ولوج السبل المنبثة خلال منابت البردي غير الواضحة؛ ولكن معرفتهم هذه محلية لا تتعدى

---

(١) تدخل العراق من الحدود الايرانية اربعة أنهر دائمة الجريان في المنطقة الواقعة بين قضاء بدرة ومدينة العمارة هي: كلال بدرة، وكلال الجنكولة (الجباب) والطيب، ودويريج. ويصب كلال الجنكولة في نهر دجلة؛ اما الانهر الباقية فتنحدر مياهها نحو السهل الواقع شرق دجلة، وتؤلف في بعض المواسم بركاً وأهواراً واسعة، ولكنها ضحلة.

(٢) ان هذه العشائر هي بني لام وألبو دراج وآل ازيرج وآل عيسى وألبو صالح. ان نهر دجلة في المنطقة الواقعة جنوب الكوت قد شق مجراه فوق مستوى الاراضي المحيطة به، وان القنوات الممتدة في الاراضي الزراعية ترتفع ثلاثة أو أربعة أقدام أحياناً عن الحقول الزراعية التي تقع على جانبي النهر. واذا ما انهارت بعض سداد نهر دجلة فتتعرض أراضي واسعة الى الغرق فتدمر المحصولات الزراعية. ففي عام ١٩٥١ خسرت عشيرة آل عيسى جميع محصولاتها من جراء ذلك. وفي موسم حصاد الحنطة والشعير أي: في أشهر نيسان وآذار ومايس يبلغ الفيضان ذروته، وتنخفض المياه في شهر حزيران، وعندئذ لا يستفاد منها في زراعة الشلب، الذي يبدأ موسم نثاره في شهر مايس، ويترك بدون سقي حينما تبدأ مياه الفيضان بالانخفاض.

حدود المنطقة التي يسكنون فيها . وقليل منهم يلم بالاماكن البعيدة عن مساكنهم .

نباتات الاهوار :

ويقطن المعدان الاهوار الموسمية حيث تكسو أكثرها الادغال والاحراش ، كما يسكنون الاهوار الدائمة حيث ينمو القصب[١] كثيفاً جداً في منابت البردي والبرك ، وكثيراً ما يبلغ ارتفاعه عشرون قدماً ، وغالباً ما يؤلف جزراً في البرك عائمة . والقصب لدى المعدان من أهم نباتات الاهوار . ومن سيقانه الطرية[٢] يتكون علف الجاموس المفضل ؛ ويجمع سكان الاهوار كميات كبيرة منه في كل يوم علفا لمواشيهم خلال الليل . وفي موسم الخريف يحرقون منه مساحات واسعة بغية تجديد سيقانه وضمان علف كاف لمواشيهم . ويستعملون سيقانه الغليظة التي يبلغ قطرها عقدتين أو أكثر لتسيير قواربهم في الاهوار ، ويهشمون سيقان القصب لصناعة البواري . وللبواري سوق رائجة في مدن العراق الجنوبية وقراه حيث تستخدم لتسقيف البيوت . ويشيد المعدان جميع مساكنهم من القصب ، ويستعملون سيقانه اليابسة للوقود والاضاءة ، ويقشرونها ويمضغونها كما تمضغ سيقان قصب السكر .

ولا يقتصر وجود البردي ، الذي يعلو عادة ثمانية أقدام ، على الاهوار الدائمة كالقصب ، ولكنه ينمو في المناطق التي تتحكم فيها الفيضانات الموسمية المنظمة ، ويستعمله المعدان علفاً لدوابهم (الجاموس) اذا ما انعدم القصب ، ويشيدون أكثر مساكنهم على أكوام هائلة من البردي بحيث يتكون منها مرتفعٌ اصطناعيٌ يعرف « بالچباشَة » يعلو عن سطح الماء قليلاً . ويأكل المعدان جذوره ، وتجمع نساؤهم رؤوسه المتفتحة خلال موسم الربيع ويصنعن منه حلوى صفراء تعرف « بالخرّيط » . ويعتاد الجاموس مضغ حشائش « الكولان » (scripus brachycras) التي تنمو في أطراف الاهوار . وفي الاهوار حشائش أخرى « كالسجل » (Cyperus rotundus) و « الجرّيح » (Cladium mariscus) ، والاخيرة أوراقها جارحة ، وتنمو في منابت القصب لا سيما في الجزر الصغيرة العائمة في البرك[٣] . وحينما ينخفض

---

(١) ان القصب المعروف عندنا هو من عائلة الحشائش (Grass Family) ويسمى بالانكليزية (reed) اما البردي فيسمى بالانكليزية (bulrushes) . أما الحشائش الاخرى مثل « الجريح » و « الكولان = الجولان » فهي من عائلة (sedges) .
ـ المترجم ـ

(٢) يطلق المعدان على سيقان القصب الطرية « بالعنكر » .

ـ المترجم ـ

(٣) تعرف هذه الجزر بالتُهول ، (مفردها تهل) ، وتتكون عادة من كتل متشابكة من : القصب والجريح والكُعبار (Trachomitum venetum) وشبابك (Pluchea sp.) والعلكة . Rubus sp والمربر Sonchus maritimus وأذان الفار

منسوب الماء في الاهوار تزدحم مجاري المياه « بالغزيزة » (salvinea nataus) والشمبلان (Ceratophyllum submersum) وتلتف هذه الحشائش بعضها مع بعض بحيث يتعذر على القوارب اجتيازها. وتخلو البرك العميقة، التي يبلغ عمق بعضها أكثر من ١٦ عقدة، عادة من الحشائش ما عدا حشائش «السويكة» (Najans marina). وخلال شهري آذار ونيسان تكسى أكثر صفحات المياه بأزهار بيضاء صغيرة تعرف بـ« زهير البط » (Ranunculus sphaerospermus)، وتزدهي في نيسان بأزهار صفراء براقة أو بيضاء ناصعة تعرف « بالكعيبة » (Nymphoides peltata and indica). وتنمو في الاهوار حشائش أخرى منها: « المرّان » (Panicum repens) و « ذيل العتوي » (Polypogon monspeliensis) و « الحو » و « الحليّان » أو الغريب (pasplum distichum). ويدعي المعدان ان البريطانيين هم الذين أدخلوا حشائش « الحلّيان » واتسع انتشارها هناك. ومن الغريب ان الاهوار لا تنبت الا أنواع من النباتات قليلة. وفي خلال الربيع والصيف من سنة ١٩٥٢ اعددت بقدر ما استطيع مجموعة شاملة منها فلم أحصل الا على اثنين وثلاثين صنفاً[1].

سمعة المعدان:

لقد اشتهر المعدان بسوء السمعة. فالعشائر العربية الارستقراطية تحتقرهم لغموض نسبهم، وتلصق بهم كل نوع من أنواع الخسة والضعة، بينما يخشاهم أهل المدن الذي يتنقلون بينهم في النهر شمالاً وجنوباً، ويزدرونهم ويتقبلون كل ما يقال ضدهم. وسمعتهم لدى البريطانيين سيئة. وقد انحدرت اليهم هذه السمعة منذ الحرب العالمية الاولى؛ فقد كانوا ينهبون ويقتلون الجيوش المحاربة البريطانية والعثمانية على حد سواء كلما سنحت لهم الفرصة. وخلال المدة القصيرة التي حكم البريطانيون فيها العراق لم يستطع الحكام السياسيون الذين كانوا مشغولين جداً بمشاكل أخرى أهم من مشاكل المعدان ان يشغلوا

والحلبلاب (Oxysteima esculenta) Epilobium parviflorm؛ ولكن القصب اذا ما نما نمواً عالياً يؤدي الى قتل الحشائش الاخرى. وينمو القاط (Polygonum senegalense) والنعناع (Mentha sp.) ولسان الثور (Potamogeton lucens) والكوكبان (Jussisea diffusa) وأبو رقبة (Alternathera sessilis) كثيفاً في حافات منابت البردي وفي مسالك المياه الضحلة.

(١) وأعددت أيضاً مجموعة من حشائش حاس الهور (Samolus valcrandi) والزامرا (Marsilea quadrif oliata) ومخرب القاع (Lycopus sp.) وموسان (Cyperis alopeceuroides) وتابلك (Limnophila) وبريجة (Sphenoclea zeylanica) والغراب (Saliz sp.) وعساف (Crucifer). ومجموعتي هذه موجودة في المتحف البريطاني (قسم التاريخ الطبيعي).

انفسهم بالمعدان ؛ بل تركوهم وشأنهم اذا ما سلكوا مسلكاً حسناً بصورة عامة وقصفوهم بالطائرات اذا ما أخلوا بالامن . ومنذ ذلك الحين قليل من الناس من اتسع وقته أو كان راغباً في زيارتهم . وقد كانت زيارتي الاولى لمنطقة الاهوار في خريف سنة ١٩٥٠ ، ومكثت هناك شهراً واحداً ؛ وعدت لزيارتها في ربيع عام ١٩٥١ وقضيت شهراً واحداً ، ثم شهرين في خريف السنة نفسها ، وخمسة أشهر خلال موسمي الربيع والخريف من سنة ١٩٥٢ ، وستة اشهر خلال موسمي الربيع والخريف من عام ١٩٥٣ . وقد أمضيت أكثر هذه المدة في « الاهوار الوسطية » ، كما انني تنقلت كثيراً في الاهوار الشرقية وزرت قسماً من الاهوار الجنوبية الواقعة على مقربة من مدينة سوق الشيوخ . وحيث ان الغرض من زيارتي هو دراسة أحوال المعدان[1] فقد توغلت حالا في قلب الاهوار الوسطية بدلاً من المكوث عند المزارعين وكبار الشيوخ واجراء رحلات قصيرة من هناك الى الاهوار المجاورة . وحالما أجعل لنفسي مكانة بين المعدان اتصل بالقبائل المجاورة من الرعاة والمستوطنين ؛ ومنذ ذلك الحين أمضيت معظم أوقاتي معهم . لقد تجولت بين المعدان وحيداً ، فلم أصطحب خادماً ، ولم أحمل خيمة ولا طعاماً ، بل عشت معهم واعتمدت عليهم في مأكلي ومسكني وسفري . وقد كنت آمل أن أقنع بعضهم على مصاحبتي في التنقل بين الاهوار ولكنني لم أفلح . وحيث انهم يعيشون حياة انعزالية جداً وصلتهم بالعالم الخارجي قليلة فلم يزر الا عددٌ قليلٌ منهم مدينة الناصرية أو البصرة أو العمارة . وقد كانوا لا يريدون مصاحبتي في باديء الامر الى أبعد من القرية المجاورة . وعليّ أن أبدأ من جديد في كل قرية أزورها ، شخصاً غريباً في أرض غريبة . وقد كسبت ثقتهم شيئاً فشيئاً ؛ واستطيع الآن أن أعتمد على معارف كثيرين بمقدورهم ان يسافروا معي الى أي مكان أشاء ، ويمكثوا معي أية مدة أريدها . والمعدان أناس لطيفون ومرحون وكرماء وودّيون ؛ وتكاد تكون عادة أخذ الثأر معدومة عندهم . ومع ان لهم سمعة واسعة باللصوصية الا انهم لم

(١) على الاغلب لم يكتب شيء عن أحوال المعدان . ولكن بوكستون (P. A. Buxton) وداوسن (V. H. W. Dawson) كتبا رسالة صغيرة بعنوان « عرب أهوار جنوب ما بين النهرين » (The Marsh Arabs of Lower Mesopotamia) نشرت في مجلة المتحف الهندي عام ١٩٢١ . وساهمت الليدي دراور (Lady Drower) في كتابة بحث عن « عرب هور الحويزة » في كتاب هنري فيلد Henry Field's, The Anthropology of Iraq PartI, Number 2. ولكن أغلب المقال يتناول زرّاع منطقة الكحلاء المنتمين الى عشيرة ألبو محمد . وتوجد كذلك مجموعة قصص بعنوان « حاجي ريكان ، عرب الاهوار كتبها فولانيان » : Haji Rikkan (S. E. Hedgecock) Marsh Arab, by Fulanian, . أو (حَجّي رَيكان) كما تلفظ شعبياً .
وقصة أخرى عنوانها « الثأر » بقلم كوري (The Blood Fued, by C. E. Corry)

يسرقوا مني أي شيء خلال المدة التي قضيتها بينهم. فتقاليدهم تختلف عن تقاليد البدو الصارمة؛ ولا يستطيعون مجاراتهم في حسن الضيافة، وهم أقل منهم صبراً وجلداً، وقد يكون ولاء بعضهم لبعض أقل تماسكاً؛ وهم وان كانت معاييرهم لا تسمو الى معايير البدو ولكنها لا تختلف كثيراً عن صفات سكان القرى العربية.

أصل المعدان:

ويتألف المعدان من عدة عشائر مختلفة، ومن بطون وعشائر أخرى. وقد ينحدر بعضهم الى أصول عربية؛ وقد ينحدر آخرون «كالشغانبة» و«الفريجات» الى أرساس كانت موجودة في العراق قبل الفتح العربي. ان جميع عشائر العراق الجنوبية باستثناء العشائر البدوية الاصيلة، قد امتزجت ولا شك دماؤها بدماء أجنبية. فاذا كان عرب الحجاز ونجد يمثلون الطابع العربي فقد اختلطت دماء أكثر عشائرها بدماء أجنبية اذا ما ألقينا أحكامنا هذه على صفاتهم الجسمية. وهذا ما نتوقع وجوده بين سكان الاهوار؛ فقد كانت هذه الاهوار ملجأ أميناً لبقايا الشعوب المغلوبة منذ أقدم عصور التاريخ. ومن المتعذر جداً القيام بعمليات عسكرية في هذه الاهوار كما دلت الحرب العالمية الاولى حينما حاولت القوات البريطانية القاء القبض على المعدان الذين سببوا لها اتعاباً. ان القبائل الرحالة البدوية قد استهجنت ولابد هذه الاهوار حينما غزت العراق لاول مرة؛ غير ان بعضها أو بعض بطونها التي قد اختلطت دماؤها فعلاً بدماء أجنبية لدرجة كبيرة قد اضطرت بمرور الزمن على ان تعيش في هذه الاهوار وتكيف أساليب عيشها الى هذا المحيط الجديد. وتعيش اليوم بعض بطون عُسيرة ألبو محمد الكبيرة والقوية «كالشدّة» والبو نصر الله في الاهوار، في حين ان أكثر أفراد عشيرة ألبو محمد[1] يعيشون فلاحين في المنطقة الواقعة بين العمارة وقلعة صالح. وشبيه بهم عشائر بني أسد وبني خيقان وأكثر عشيرة الفرطوس. فهؤلاء جميعهم من المعدان. ويدّعي كل بطن من هذه البطون وانه ينحدر من سلالة عربية كما تنتسب العشيرة التي ينتمي اليها، وان كان في الحقيقة يعود الى أصل آخر، ما دامت القبائل العربية الكبيرة تمتص في كل مكان، القبائل الضعيفة التي تحتمي

---

(١) تسكن عشيرة ألبو محمد جنوب مدينة العمارة على جانبي نهر دجلة وتفرعاته حتى قرية العزير. ويشتغل أكثر أفرادها بالزراعة وتربية الجاموس. ويدعون انهم ينحدرون من عشيرة الغزة، من الفخذ المعروف اليوم بألبو بكر. غير ان هناك من يقول انهم لم ينحدروا من جد واحد. وقد دلت الفحوص الجسمانية التي قام بها العلامة الانثروبولوجي مستر هنري فيلد الذي سبقت الاشارة اليه على ان دماء هذه العشيرة قد اختلطت بدماء أجنبية أخرى.
راجع: Field, Henry, The Lower Euphrates, Tigris Region, Part I, Number 2.
وراجع: عباس العزاوي عشائر العراق، ج٣ -المترجم-

بها من أجل المحافظة عليها[1]. ففي منطقة عمان مثلاً توجد جماعة من البلوش اندمجت « بالوهيبة ». ومع انها لا تختلف تقريباً في مظهرها وعاداتها ولهجتها عن الوهيبة، ولكن هؤلاء البلوش يعترفون بأصلهم المستقل؛ وسيدّعون كلما مر الزمن انهم ينحدرون ولا شك من عمود النسب الذي تنحدر منه عشيرة الوهيبة، لان الانحدار من صلب قبيلة عربية مشهورة له أهمية في الشرق الاوسط كأهمية الانحدار من أصل نورمندي في بريطانية. وعليه فليس من الحكمة ان نتقبل ما يقوله المعدان عن أنفسهم من انهم ينحدرون عن أصل عربي. وتعترف عشيرة « الشغانبة » وبعض أفراد « الفريجات » حتىٰ يومنا هذا انها من أصل صابئي، ويتضمن هذا القول، علىٰ ما يظهر، انهم كانوا موجودين في هذه المناطق قبل نزوح العرب اليها وان ظلوا يجهلون سلسلة نسبهم. وفي ضوء هذا فان نسب عشيرة ألبو محمد يرجع الىٰ حادثة زواج وقعت قبل اربعة عشرة جيلاً بين أحد أفراد عشيرة « العزة » (من زبيد) وامرأة من عشيرة « الفريجات ». وتذهب الرواية الىٰ ان عربياً اسمه « محمد » قد التجأ الىٰ عشيرة الفريجات بعد ان قتل ابن عمه وظل هناك نحواً من خمس عشرة سنة؛ وكانت ترافقه شقيقته المسماة « باشا ». وخلال هذه المدة أحب محمد احدىٰ بنات رئيس عشيرة « الفريجات » تدعىٰ « محناية » وأراد ان يتزوجها؛ فوافق أبوها علىٰ ان يتزوج أخته « باشا ». فوافق محمد علىٰ هذا العرض؛ غير ان رئيس « الفريجات » استبدل « محناية » الجميلة بـ « گوشة » القبيحة. وحينما دخل عليها محمد ورفع حجابها علم بالخديعة واكتشف المؤامرة التي دبرت ضده، فاستسلم الىٰ القدر وجعلها زوجاً له قائلاً « الحمد لله والشكر هذا هو رزقي ». وقد انجبت « گوشة »[2] ولدين هما « سعد » و « عبود ». ومن هذين الولدين انحدر بطنا ألبو محمد: « العملة » و « ألبو عبود » وحتى يومنا هذا نجد ان « نخوة » عشيرة ألبو محمد هي « أنا أخو باشا » ونخوة الفريجات « أنا أخو گوشه ».

ومع ان العرب قد فرضوا لغتهم ودينهم وثقافتهم علىٰ المعدان ولكن لا يعرف كثيراً ما في عشائر الفريجات والشغانبة والفرطوس والشدّة والسويعديين والسواعد والغولبة

---

(١) تعيش أكثرية عشيرة كعب في الأراضي الايرانية في الجهة الشرقية من هور الحويزة. غير ان أحد أفخاذها، وهو من المعدان، يعيش في الجهة الغربية من نهر دجلة قرب قرية علىٰ الشرقي، وقد انضم الىٰ عشيرة بني لام.

(٢) أخبرني الشيخ محمد العريبي رئيس عشيرة ألبو محمد ان « كوشة » أنجبت ثلاثة أولاد هم: عمله، وعبود وشديد. ومن هؤلاء الاخوة الثلاث انقسمت عشيرة ألبو محمد الىٰ ثلاثة بطون هُمْ: بالعملة وآل عبود والشدة. وتنحصر مشيخة ألبو محمد اليوم في « العملة » ـ المترجم ـ

راجع كذلك كتاب هنري فيلد الآنف الذكر صفحة (٢٦٣ ـ ٢٦٤).

وكعب[1] من دماء عربية نقية . وعلى كل حال فانني مقتنع ان لمن الخطأ ان نحسب المعدان يختلفون جنسياً[2] (ethnological) عن غيرهم من العشائر المجاورة . اذ لا توجد بين المعدان وغير المعدان حدود واضحة المعالم . ومن الخطأ ان نفترض ان المزارعين ينتمون الى أصل عربي والمعدان ينتمون الى ارساس قديمة غير عربية . فقد اختلطت دماء أكثر هذه العشائر اختلاطاً كبيراً . ولعل الدماء العربية في بعض المعدان هي أقل من المزارعين الذين يعيشون بعيداً عن الاهوار . وعلى كل فان المسألة لا تتعدى حدود النسبية . وليس التفاوت بينهما « رسْميّاً » بل تفاوت في البيئة الخاصة التي يعيشون فيها ، ولدرجةٍ ما الى المهن التي يتعاطونها . ومن اليسير على المرء ان يميز بدوياً يقطن الاراضي المجاورة للصحراء أو مدينة عربية . فمظهره العام وسلوكه الخاص ونبرات صوته تنمّ كلها عن بداوته ؛ ولكن من العسير جداً ان تميّز اليوم معيدياً بين حشد من المزارعين المجاورين اذا كانت ملابسهم متشابهة ، أو تميز أحدهم في أسواق مدينة العمارة أو قصبة المجر الكبير . ومع ان أفراد عشيرة ألبو محمد يلبسون لباساً واحداً ويتكلمون لهجة واحدة ويعيشون عيشة متشابهة فان بعضهم يطلقون على انفسهم فلاحين من حيث أنهم يقومون بزراعة الشلب في أطراف الاهوار ، بينما يطلق آخرون على أنفسهم المعدان حينما يقطنون على مسافة أربعة أو خمسة أميال داخل الهور . وكلاهما يقومان بتربية الجاموس وزراعة الشلب وصيد الاسماك « بالفالة » . ويتخذ المعدان تربية الجاموس وسيلة عيش لهم ، كما يتخذ المزارعون زراعة الشلب مورداً لرزقهم . وقد يملك بعض الفلاحين جاموساً أكثر من غيرهم ، وقد يزرع المعدان الشلب أكثر مما يزرع أكثر الفلاحين المجاورين . وتطلق كلمة المعدان [3] على سكان الاهوار . وربما يذهب بعض الناس

---

(١) تدّعي عشيرة الفريجات انها تنحدر من سلالة عشيرة « ألبو ظاهر » . أما الفرطوس والسويعديين فتدعيان أنهما ينتسبان الى عشيرة « آل عزّي » .

(٢) راجع هنري فيلد :

The Lower Euphrates, Tigris Region, Part I, No. 2, p. 254.

ـ المترجم ـ

(٣) ان كلمة معدان جمع ، ومفرده « معد » . وهو جمع عرفي ، كقولنا في جمع عرب ، عربان ، وقس على ذلك . ومعد حي أي قبيلة يذكر ويؤنث . يقال فلان معدي أي منسوب الى حي . ومن ذلك المثل السائر « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . وكان هذا « المعيدي » يغير على مال النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فكان يطلبه فلا يقدر عليه . وكان يعجبه ما يسمع عنه من شجاعة واقدام ؛ الى أن أمنه ، فلما رآه استزرى منظره ، لانه كان دميم الخلقة . فقال النعمان : « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . وتمعدد (فعل) أي تزيا بزيهم . والمعيدي تصغير ، رجل منسوب الى معد . يضرب مثلاً لمن كان خبره خير من مرآه .

ـ المترجم ـ

الىٰ ان كلمة المعدان ينبغي ان تطلق فقط علىٰ سكان الاهوار الذين يملكون قطعاناً من الجاموس ، ويتنقلون بها من هور الىٰ آخر ، وان كلمة الفلاحين تطلق علىٰ القرويين الذين يقومون بزراعة الشلب سواء أكانت هذه الزراعة داخل الاهوار أو علىٰ حافاتها . ويذهب « كلوب »[1] مثلاً الىٰ ان كلمة « بدو » ينبغي ان يقتصر استعمالها علىٰ اولئك البدو الرحل الذين يملكون جمالاً ، وينتسبون الىٰ أصل عربي صميم ، في حين ان عرب الحجاز يطلقون استعمالها غالباً علىٰ عدة عشائر منها عشيرة ألبو هلال التي تملك اغناماً ومعزاً وماشية ، ولا تملك جمالاً الا فيما شذ ونذر . والحقيقة ان العرب أنفسهم لم يراعوا الدقة في استعمال هذه المصطلحات . لقد كان المعدان يعتمدون في معيشتهم فيما مضىٰ علىٰ الجاموس كل الاعتماد ، بينما يعتمد كثير منهم اليوم علىٰ زراعة الشلب ، ولكن كلا اصحاب المواشي والفلاحين هما من سكنة الاهوار ، وعلىٰ هذا الاساس فقد اصبحوا معداناً . ومما يثير الاهتمام انه بينما يفاخر « البدوي » دائماً علىٰ انه « بدوي » ، وبينما يفاخر كثير من القرويين وسكان المدن وحتىٰ « الافندية » علىٰ انهم من أصل « بدوي » فان كلمة المعدان في غير مناطق الاهوار ترادف كلمة جلف . وحتىٰ سكان الاهوار أنفسهم لا يفتخرون بكونهم معداناً الا اذا أرادوا ان ينسبوا لانفسهم المهارة الفنية الخاصة بسكان الاهوار . وطالما سمعت معيدياً يخاطب معيدياً آخر لا يحسن استخدام مشحوفه « هل انت عربي ؟ هل انت كردي ؟ » .

الجاموس :

ويعتبر المعدان الذين يمكن تقسيمهم الىٰ رحل وقرويين جاموسهم[2] علىٰ جانب عظيم من الاهمية . ومن الرحل بعض أفخاذ الفريجات والسويعديين وقسم من السواعد وبعض الشغانبة والفولبة (الكولبة) من ألبو دراج وكعب من بني لام . وينظّم المعدان حياتهم وفقاً لحاجات جاموسهم ؛ ولكن هناك تنوع واضح وغريب في تنقلاتهم الموسمية . وهكذا نجد أن أفراد عشيرتي الفريجات والسويعديين يشتون في الاهوار ويتجمعون باعداد كبيرة في بعض المناطق كمنطقة « أبو ليلة » الواقعة شرقي نهر دجلة . وفي موسم الربيع ينتقلون شيئاً

---

(١) يقصد جون كلوب قائد الجيش العربي في الاردن سابقاً . ـ المترجم ـ

(٢) يستعمل المعدان كلمة الجاموس بصورة المفرد ، وجمعه « دواب » . وقد عرف الجاموس في العراق في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي حينما افتتح محمد بن القاسم بلاد الهند والسند . وقد أتىٰ الحجاج بأناس من شط السند والهند ومعهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم وأسكنهم البطيحة . راجع كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، صفحة ٣٨٣ . ـ المترجم ـ

فشيئاً نحو الشمال فيصلون الى المناطق المزروعة الكائنة على امتداد نهر « العدل » و « الوادية » والمجر[1] بعد حصاد الحنطة والشعير . وفي شهر تموز ينزحون ثانية أما شمالاً نحو منطقة عشيرة آل ازيرج أو غرباً نحو منطقة « الجندالة » ، حيث شاهدت جماعات كبيرة منهم في أواخر شهر تموز ؛ ثم يعودون الى الاهوار في موسم الخريف . ومن جهة أخرى نجد أفراد عشيرة « السواعد » الرحل يشتون في الحافات الشمالية من منطقة الاهوار الشرقية ، وينزحون عنها حينما تجف هذه الحافات خلال شهر مايس ، ويتوغلون في أعماق هور الحويزة . ويملك هؤلاء الرحل قطعاناً كبيرة من الجاموس ؛ وتتراوح ملكية أكثر العائلات بين ٢٠ ـ ٣٠ جاموسة ، ويملك بعض أفراد عشيرة الفريجات من ١٢٠ ـ ٢٠٠ جاموسة .

ان أكثرية المعدان تسكن القرى ، ويمتهن كثير من هؤلاء القرويين زراعة الشلب التي تربطهم بقراهم طوال اشهر الصيف ما دام موسم زراعته يبدأ في شهر مايس وحصاده ينتهي في شهر تشرين الثاني . أما هؤلاء الذين لا يتعاطون الاعمال الزراعية فيمكثون طوال السنة في القرى الكبيرة الثابتة « كاليبضة » و « السودة » و « الدبن » و « الترابة » و « بدعة النوافل » الواقعة في منطقة الاهوار الشرقية ، و « القبور » و « العكر » الواقعتان في منطقة الاهوار الوسطية ـ يمكثون هناك لتربية جواميسهم واصطياد السمك وصناعة الحصران . ومع هذا فان بعضهم كعشيرة « العميرة » تجلو عن عن قراها في موسم الفيضان العالي وتستوطن في الجزر الواقعة في المناطق التي تغمرها مياه الفيضانات خارج منطقة الاهوار الحقيقية ، بينما يمكث غيرهم كعشائر « الفرطوس » الغربية في قراهم بعيدين عن الفيضان ، ثم ينزحون في موسم الخريف الى أعماق الاهوار مستصحبين معهم حيواناتهم . ان جميع المعدان يكيفون معيشتهم وفقاً للاحوال المحلية ، وتختلف تنظيماتهم من مكان الى آخر ، ومن موسم الى آخر . ويملكون أعداداً قليلة من الجاموس . والانسان الذي يملك اثنتي عشرة جاموسة يعد من الأغنياء ؛ وأكثرهم لا يملك أكثر من ٥ ـ ٦ جاموسات . ولما كان مهر العروس بين أفراد هذه العشائر قرابة ثلاث جواميس فان ارتفاع المهر هذا يحول دون تبكير شبانهم في الزواج . وهؤلاء المعدان المستوطنون وان كانوا لا يملكون الا اعداداً قليلة من الجاموس الا انها أعز شيء في حياتهم . انهم ينفقون قسماً كبيراً من أوقاتهم في تجريد سيقان القصب أو البردي الطرية علفاً

---

(١) يتفرع المجر من ضفة دجلة اليمنى ، ثم ينشطر الى نهري العدل والوادية .

ـ المترجم ـ

لحيواناتهم (حشيش) خلال الليل . واذا انعدم القصب في المنطقة لجأوا الى الكولان . وفي فصل الصيف يزاولون أعمالهم بعد الفجر مباشرة ، أو في وسط النهار في فصل الشتاء ؛ فتخلو القرية من سكانها ؛ فينطلقون في قواربهم الى منابت البردي رجالاً ونساء واطفالاً . وغالباً ما يقطعون مسافات شاسعة لكي يصلوا الى أحسن منابت البردي . وجل الرجال والاولاد عراة حينما يقطفون القصب الطري بالمناجل ما عدا النساء والفتيات ، ويرمونه في مشاحيفهم ، وقد علا الماء محازمهم وتعالى ضحكهم وصياحهم وغناؤهم من كل مكان . وحالما تشرق الشمس ينجه الجاموس الى الهور ويغطس فيه بعد ان أمضى ليلته[1] واقفاً عند سكن صاحبه ، جالساً في الماء أو باحثاً عن قوته ويرعى المعدان الرحل جواميسهم[2] ، ولكن المستقرون منهم لا يقومون برعيها خارج الاهوار . ويعود الجاموس الذي يعيش في القرى الى مكانه من تلقاء نفسه حالما تغرب الشمس ، أو قبل غروبها اذ كان الطقس بارداً . ويتعرض الجاموس الى حوادث السرقة لا سيما في منطقة الاهوار الشرقية ؛ وتحدث هذه السرقات عادة في وضح النهار حينما تكون في المرعى . كما تسرق المشاحيف التي يعتز بها المعدان في الليل عادة . وعند غروب الشمس يعود كل واحد منهم الى سكنه وقد ملأ مشحوفه من القصب والبردي ؛ فيلقيها أمام جواميسه التي أخذت تترك الهور وتستريح أمام بيته ثم يشعلون النيران لطرد البق والبعوض عنها ؛ ويقوم الرجال بحلبها . ولا تحلب النساء[3] الجاموس أبداً . ولشد ما دهشت حينما علمت ان كثيراً من الاولاد لا يعرفون كيف يحلبون الجاموس[4] .

ويمد الجاموس المعدان بالحليب والزبدة والقشطة « الكيمر » ؛ وفي بعض الاماكن بالجبن . ولا يذبح المعدان الجاموس أبداً لأكل لحومها الا اذا كانت مريضة أو على وشك الموت ؛ ويبلغ سعر الجاموسة الجيدة حوالي (٢٥) ديناراً . ولجاموس الاهوار سوق رائجة ؛ ويزور تجار الجاموس المعروفون « بالجلالبة » منطقة الاهوار لشرائها وارسالها الى الاسواق

---

(١) يأكل جاموس المعدان الحشيش (سيقان القصب) والبردي ، والكولان ، والجريبح ، والسجل ، والقاط ، والكوبان ، وأبو رقبة ، والحليلاب ، والكعيبة ، والحو ، والمران والحليان .

(٢) يعفر المعدان الرحل جواميسهم طليقة أمام بيوتهم . ويستعمل المعدان قاطبة ترنيمة خاصة حينما ينادون جواميسهم .

(٣) شاهدتُ نساء عشيرة الشغانبة في منطقة الصيقل يقمن بحلب الجاموس .

ـ المترجم ـ

(٤) تحلب النساء الغنم والمعز اذا كن من عشائر الرعاة كعشيرتي بني لام وآل عيسى ، ويقوم الرجال بمسك الحيوانات اثناء حلبها . وقد لا تقوم نساء بدو جنوب جزيرة العرب بحلب الجمال .

الخارجية ، فتصل الىٰ أسواق بغداد . ولكن قلَّ ان يبيع المعيدي جاموسه الا اذا كان بحاجة الىٰ نقود لشراء مشحوف أو بندقية . وحينما يتفشىٰ الوباء بين قطعان الجاموس يبيع المعدان جلود الجاموس الميت[1] الىٰ « الجلالبة » الذين يتجمعون في المنطقة كما يتجمع الغربان . ويملك بعضهم قليلاً من الابقار ؛ ويقوم بحراسة كل بيت عادة كلب كبير ، وغالباً ما يكون شرساً . ويشاهد المرء في قرىٰ المعدان بعض القطط وبعض الدجاج . ومع ان هذا الدجاج صغير الحجم فقد اشتريت الواحدة بمبلغ ٢٥٠ فلساً ؛ ولا تذبح الا اكراماً للضيف . وتملك عشيرة « العميرة » الساكنة في الحافات الغربية لمنطقة الاهوار الوسطية عدداً من الاغنام . وترعىٰ هذه عادة في الصحراء بعيدة عن الاهوار ، ويتولىٰ رعيها رعاة ينتسبون الىٰ قبائل أخرىٰ . وحينما وقع جدب في الصحراء عام ١٩٥٢ احتفظت عشيرة العميرة باغنامها وفي مساكنها ؛ وأخذت تهيّيء علفها من الحشائش التي تنبت في الاهوار . وعلىٰ أثر ذلك كثر الذباب في قرىٰ المعدان بشكل لا نظير له .

مساكن المعدان :

ويشيد المعدان الرحل ملاجيء موقتة (شاكص = شَكّص) من حصران مركبة علىٰ أضلاع مقوسة (حنايا) مصنوعة من حزم البردي ، أو من حصران مرفوعة علىٰ أعواد (مرادي) مثبتة في الارض . ومن السهل عليهم ان يفككوا هذه الملاجيء الموقتة ويحملوها في مشاحيفهم مع امتعتهم[2] الاخرىٰ حينما يرومون الرحيل الىٰ مكان آخر . ويعيش بعض المعدان المتوطنين في مساكن أحسن من مساكن هؤلاء ؛ ولكن أكثرهم يعيش في بيوت حسنة التشييد . وتتجمع هذه أحياناً علىٰ جزر صغيرة بصورة متراصة تدعىٰ « بالايشان » . وقد تكون هذه الجزر مواقع قرىٰ ومدن قديمة . ويعتقد كثير من المعدان ان فيها كنوزاً مطمورة ، كما يعتقد جميعهم اعتقاداً راسخاً بالجزيرة السحرية المعروفة « بالحفيظ » التي يدعون انها موجودة في قلب الاهوار الوسطية وواقعة الىٰ الشمال الشرقي من « الجبايش » ، وان الجن يحرسها ، وقادر علىٰ اخفائها ، وفيها كنوز مطمورة ، ونخيل وبساتين مثمرة بالرمان والفواكه الاخرىٰ ، كما يدعون ان نوراً يتألق فيها ليلاً ، وان كثيراً منهم قد شاهد هذا النور .

---

(١) وهذا خلاف ما أجمع عليه المسلمون كافة . ان ثمن الميتة وجلدها ولحمها وجميع ما تحمله الحياة سحت حرام . ـ المترجم ـ

(٢) يحمل المعدان الرحل أغلب ممتلكاتهم في صندوق خشبي كبير .

وفي الاهوار، مع هذا، قليل من الجزر[١] وأكثرها كجزيرة « القبور » و « أبو شجير » و « أبو صخير » لا تسكن الا في موسم الشتاء. أما « العقر » التي تقع في الاهوار الوسطية فهي من الجزر التي تقطن طوال السنة. وفي أكثر القرىٰ (وتسمىٰ سلف وجمعها أسلاف) تشيّد البيوت علىٰ أكوام من الحشائش، يحيطها سياج واطيء مصنوع من البردي، فتتكون ساحة صلبة يطلقون علىٰ مجموعها اسم «الجباشة = الچباشة» كأنها عش كبير من أعشاش طير البريزجي Dabchick وتغوص هذه « الجباشة » في الماء بصورة مستمرة وتدريجية، ولكن المعدان يقومون بتعلية سطحها عن مستوىٰ الماء بالمزيد من الحشائش والأدغال. وفي موسم الفيضانات يعلو الماء أحياناً سطح « الجباشة » فيضطر سكانها ان يجلسوا علىٰ أسرتهم القائمة وسط كل بيت، والتي تشطر البيت الواحد الىٰ قسمين: قسم خاص بالعائلة، وقسم خاص بالرجال. ولا يقوم المعدان أبداً، الا فيما شذ وندر، بأبعاد نسائهم عن الزائرين. ويستعمل الخاص بالعائلة مكاناً للطبخ؛ ولهذا فان الزائرين يجلسون في القسم الثاني وهو القسم الخاص بالرجال. ويستطيع كل واحد مع هذا ان يدخل البيت من أي قسم كان ويجالس النساء ويحادثهن سافرات. وفي الليل ينام جميع أفراد العائلة وضيوفهم في ساحة « الجباشة » أو في القسم الخاص بالرجال، حيث ان القسم الثاني من البيت يزدحم عادة بأدوات الطبخ أو بأكياس الحنطة أو بصغار الجاموس.

وأكثر المساكن الدائمة (بيت قصب) تبنىٰ من البواري الموضوعة علىٰ حنايا (شَبَّة) متوازية قد يبلغ عددها خمساً أو أكثر والمصنوعة من حزم القصب. وتشيد كل حنية من حزمتين متراصتين مغروزتين في الأرض متقابلتين، وتبتعد الواحدة عن الاخرىٰ بقدر عرض المسكن المراد تشييده، ثم يربط طرفي الحنيتين العلويين ويلتقيان متشابكتين ومتداخلتين بحيث يشكل كلتاهما حذوة فرس[٢]. وفي موسم الصيف تترك نهايتا المسكن مفتوحة، وتسد بالبواري في المواسم الباردة والرطبة والعاصفة. ومن هذا النموذج البسيط من المساكن تطور « المضيف » الواسع، أو دار الضيافة، الذي هو احدىٰ الخصائص البارزة للقرىٰ الكبيرة الواقعة حول الاهوار. وقد شاهدت « مضيفاً » جميلاً جداً في قرية « الصيكل » يتألف من

---

(١) يبلغ ارتفاع ايشان « الواجف » الذي يقع في الاهوار الشرقية حوالي ثلاثين قدماً، وارتفاع « العزيزة » حوالي خمسين قدماً. وأغلب الجزر لا يزيد ارتفاعها علىٰ أكثر من (١٢) قدماً عن مستوىٰ ماء الهور.

(٢) ان مزارعي الكحلاء والازيرج غالباً ما يشيدون مساكنهم من بيتين متلاصقين من هذه البيوت علىٰ شكل حرف T. ولم أجد مثل هذه المساكن بين المعدان.

احدى عشرة حنية، ويبلغ طوله ستين قدماً وعرضه عشرين وارتفاعه ثمانية عشر. كما يبلغ محيط الحنية عند القاعدة السفلى تسعة أقدام، وقدمين ونصف في قسمها العلوي؛ وتصنع الحنية من اعداد من ربطات القصب الرفيع المشدودة بعضها الى بعض بدقة وعناية. ثم تربط هذه الحنايا بحزم من القصب يتراوح سمك كل حزمة ست بوصات من أسفلها الى أعلاها، ثم تُغطى بالبواري الكثيرة حيث يصل سمك الغطاء أحياناً الى ثلاث أو اربع طبقات من البواري. وتقام في مدخل كل مضيف ومؤخرته أربعة أعمدة[1] مصنوعة من حزم القصب لاسناد نهايتيه تغطيها بواري متداخلة وعوارض قصبية رقيقة ومشبكة. وللمضيف روعة خاصة؛ فالداخل اليه يشعر وكأنه في مكان فسيح، أو كأنه في كاتدرائية، مبعثه هذه الحنايا الكبيرة الممتدة الى السقف والنوافذ الصغيرة المشبكة بالقصب. ويخامره هذا الشعور أيضاً حينما يشاهده من الخارج وقد انتصبت في واجهته الاعمدة الكبيرة التي يراها الناظر أين ما كان. ان المضيف الذي رأيته في ناحية المدينة الواقعة على نهر الفرات كان أطول مضيف عرفته، فقد كان يتألف من خمس عشرة حنية، وكان طوله خمسة وثمانين قدماً وارتفاعه خمسة عشر قدماً. ان التفاوت الكبير بين نسبة الطول والارتفاع يوحي الى الانسان كأنه في نفق طويل. وتبنى أكثر حنايا المضايف باعداد فردية، فهي اما ان تكون ٧، ٩، ١١، أو ١٣ وأحياناً ١٥ حنية[2]. ان عدد الحنايا الخاصة بكل مضيف يتماشى وتقاليد كل قبيلة وكل عائلة. ويواجه مدخل كل مضيف القبلة دائماً. وتفرش ارضه بالبواري، وتغطى بالسجاد عند الحاجة. ولا يحتوي المضيف على أثاث غير «كوز» كبير للماء موضوع على «مرفع» خشبي بالقرب من مدخله. اما السرير الذي هو احدى خصائص بيوت السكنى البارزة فلا يوضع فيه أبداً. ويقع موقد القهوة في الثلث الاول من المضيف والى الجهة اليمنى، وحواليه تنبعث حياة القرية الاجتماعية.

الوسائط النهرية:

والمشاحيف وسائط لا يستغني عنها المعدان. وبدونها يفقدون حركتهم، ويصبحون غير قادرين على التنقل من مكان الى آخر ومن قرية الى أخرى؛ ولا قادرين على قطع القصب علفاً لجواميسهم، وصيد الاسماك. ويطلقون على قواربهم هذه اصطلاحاً عاماً هو مشحوف

---

(١) تسمى كوسر.

(٢) رُوي إليّ أنّ بعض مضايف الفرات تتألف من (١٧) حنية. ويشيد بيت وادي من عشائر ألبو محمد مضايفهم من (١١) حنية في حين ان بيت صيهود يشيدونها من (٩) حنايا.

(وجمعه مشاحيف)[١]. ويصنع المشحوف من ألواح خشبية ومن قطع خشبية محفورة، مستوية في الوسط ومنحنية في الاطراف ومطلية من الخارج بالزفت (القير) ويكسىٰ النصف العلوي من الاضلاع (عوجة) بألواح خشبية من الداخل، وبألواح أخرىٰ من الخارج تمتد بامتداد المشحوف. فهي عريضة حينما تكون في وسط المشحوف ودقيقة حينما تكون في نهايته لا سيما حينما تتجه بارتفاع مقدم المشحوف (العتق) ليكون قادراً علىٰ ان يشق طريقه في الاهوار وسط منابت البردي. ويسقف غالباً مقدم المشحوف من الداخل (بوز) ومؤخره (اخير) بألواح خشبية لعمل دكّتين، ولا يتجاوز طول كل واحدة منهما أكثر من قدمين، ويستخدمان لاغراض مختلفة. وفي المشحوف عارضتان خشبيتان لتقويته تعرف عندهم «بالجست». ولا يجلس المسافرون عليها، بل يجلسون دائماً في قعر المشحوف.

اما الطرادات التي كانت تستخدم لاغراض حربية في الاهوار والتي ما زال يستخدمها الشيوخ لسرعتها وتوفر اسباب الراحة فيها فيبلغ طول الواحدة منها ٣٦ قدماً وعرضها ثلاثة أقدام ونصف في أعرض مكان فيها. ويمكن ان تستوعب أحد عشر راكباً. ويرصف قعرها بألواح خشبية (تخت) علىٰ خلاف المشاحيف الاعتيادية، أو تزخرف الالواح الداخلية الممتدة علىٰ جانبها بمسامير ذات رؤوس كبيرة (قرصة). وفي المتحف العراقي ببغداد نموذج مشحوف[٢] مصنوع من الفضة عثر عليه في مدينة أور يشبه المشحوف[٣] المستعمل الآن شبهاً كبيراً. ويفضل المعدان بصورة عامة المشحوف الواسع الذي يسمونه عادة اسم «البركاشة = البركش» والذي يستطيع ان يستوعب حمولة كبيرة من البردي. وتكون مشاحيف المعدان الرحل بصورة خاصة فسيحة وكبيرة ما داموا يستخدمونها في نقل أفراد العائلة وجمع ممتلكاتهم خلال سفراتهم المتعددة. ويستعملون أيضاً مشاحيف صغيرة غير عميقة يسمونها «بالماطور»[٤] يستخدمونها اثناء صيد طيور الخضيري. وحينما يكون الماء ضحلاً يدفعون

(١) والمشاحيف علىٰ أنواع مختلفة منها: جلابية، وبركاشة أو دانق، وقعيدة، وطرادة، اما الماطور الصغير فلا عتق له كما في بقية القوارب الاخرىٰ.

(٢) عثر علىٰ هذا المشحوف الفضي مع مجاذيفه في المقبرة الملكية في أور، التي تعود الىٰ دور فجر السلالات (القاعة الثانية).

ـ المترجم ـ

(٣) لم أشاهد «القفة» في نهر دجلة ابتداء من جنوب مدينة علي الغربي. وفي المتحف العراقي نماذج طينية للقفف عثر عليها في أور.

(٤) وقد يربط المعدان عدداً من حزم البردي بعضها الىٰ بعض ويصنعون منها قارباً بدائياً يدعونه بـ «الشاشة».

قواربهم بأنفسهم، ويغرقون اذا كان الماء عميقاً. وفي بعض الاماكن يبلغ عمق ماء الاهوار أحياناً أكثر من ١٢ قدماً. وفي كل طرادة، أو مشحوف كبيرة، عادة خمسة مَلاحين، يقف اثنان منهما في صدر الطرادة وثلاثة في مؤخرتها، وهؤلاء اما أن يدفعوها أو يجدفون سوية تارة من هذه الجهة وأخرىٰ من الجهة الثانية. ويفضّل المعدان دائماً طريقة دفع مشاحيفهم بالمردي علىٰ طريقة الغرف لانها أسرع سيراً وأقل جهداً. ويقطعون في اليوم الواحد مسافة لا تقل عن خمسين أو ستين ميلاً بكل سهولة. وحينما يسيرون ضد مجرىٰ ماء النهر خارج منطقة الاهوار حيث تكون شواطىء الانهار قوية[١] فانهم يربطون مشاحيفهم من مقدمتها بحبل يسمونه « الشاروفة » ويجرونها واضعين نصب أعينهم الكلاب الشرسة التي قد تعترضهم في القرىٰ الممتدة علىٰ طول شاطىء النهر. ومع ان مجال السلامة يكاد يكون ضعيفاً جداً في هذه المشاحيف الا ان المعدان يتحركون داخلها بحرية، وغالباً ما يقفزون منها الىٰ المياه العميقة ويتسلقون اليها دون ان تتعرض الىٰ الغرق. وهم يتعلمون استعمال المشحوف قبل ان يتعلموا المشي تقريباً، ولكنهم يخشون المياه الواسعة اذا ساءت الاحوال الجوية. ففي العام الماضي هبت عاصفة فجائية في احدىٰ البرك وأغرقت عدداً من المشاحيف ولاقىٰ بعض المعدان حتفهم حينما كانوا يزفون عروساً[٢]. ويملك المعدان كذلك عدداً من القوارب الكبيرة التي يسمونها « بالابلام » (مفردها بلم)، وتختلف في حجومها عن المشاحيف اختلافاً كبيراً، وتتميز عنها بوجود نهايتين معقوفتين احداهما لشد الشاروفة والاخرىٰ لادارة سكان البلم. وهم أما ان يدفعوا البلم بالمرادي ماشين علىٰ طول حافتين واما ان يسيروه باستخدام «الشراع». وتقصد الاهوار من البصرة والعمارة أبلام كبيرة تعرف بـ« العانية » لجمع القصب والبردي. وقد شاهدت عدداً منها في « بدعة النوافل » الواقعة في الاهوار الشرقية من ذوات الصاريتين، ويستخدم صيادو الاسماك المعروفون « بالبربرة = البرابرة »[٣] أبلاماً صغيرة حينما يصطادون الاسماك بالشباك.

ان الاشجار لا توجد في الاهوار. وتصنع القوارب من الاخشاب المستوردة. ويقوم

---

(١) من العادات الجارية أن يُحيّي المسافرون مع تيار النهر المسافرين الذين يسيرون ضد تيار الماء.

(٢) وقع هذا الحادث الذي يشير اليه المحاضر في « بركة الجكة » التي تقع في بزايز مقاطعة البحاثة، وقد لاقىٰ ١٧ شخصاً من عشيرة السواعد حتفهم بين رجل وامرأة وطفل. ـ المترجم ـ

(٣) يبدو ان هذه التسمية قد أطلقها سكان المنطقة علىٰ هؤلاء لان أكثرهم من الزنوج، كما يبدو ذلك في عشيرة « بيت شذير »، اذ ان هذه العشيرة ترجع الىٰ أصل زنجي. ـ المترجم ـ

بصناعتها الصابئة في الاعم الاغلب، ولكن بيت أبو دروة وبيت الهيجل من المهرة في صناعة القوارب ايضاً وأحسن المشاحيف تصنع في منطقة «الهوير» الواقعة على نهر الفرات على بعد بضعة أميال من مدينة القرنة. وتقطن في القرى الكبيرة الواقعة في الأهوار وحواليها عائلات صابئية أيضاً، ويعيش الصابئة من صناعة اصلاح المشاحيف، ويتميزون عن العرب بلحاهم الطويلة. وأكثر الصابئة[1] الذين يقدر عددهم ببضعة آلاف يعيشون في بغداد، والبصرة والعمارة وسوق الشيوخ وقراها، ويشتهرون بالصياغة. وهم يعبدون ذاتاً عليا، ويقال أن دينهم يحتوي على مبادىء مانوية[2] لا اسلامية. والحقيقة انهم كما يبدو وثنيون، ولو ان بعضهم يدّعي انهم طائفة من النصارى Gnastics؛ ويعرفون أحياناً انهم من اتباع القديس يوحنا المعمدان[3]؛ فهم يمارسون التعميد في يوم الاحد من كل اسبوع، وفي كل مرة يتعرضون فيها الى النجاسة، أو يخالفون أصول الطهارة. ويستعملون اللغة الآرامية في طقوسهم الدينية. ويسمونهم العرب «بالصبة»، وهؤلاء هم الصابئة أو المانويون الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم ثلاث مرات مع اليهود والنصارى بانهم «اصحاب الكتاب» لا قبائل الصابئة الوثنية التي عاشت في جنوب جزيرة العرب. ولهذا فان معاملة المسلمين لهم تتصف بالتسامح، ولكنهم جميعاً يعيشون في عزلة شديدة عن جيرانهم المسلمين.

صيد الاسماك:

ويمضي المعدان أكثر أوقاتهم في صيد الاسماك «بالفالات». وتتكون «الفالة» من خمسة رؤوس مدببة مركبة على عصا خيزران طولها حوالي عشرة أقدام. ويقف حامل «الفالة» في مؤخرة المشحوف، بينما يقوم رجل آخر بإدارة سكان المشحوف أو توجيهه الى ناحية يستطيع ان يسدد منها ضربته الى السمكة دون ان يحول بينه وبينها مقدم المشحوف. ويذهبون أحياناً للصيد جماعات، ويسمون «بالصوابيد»، ويمضون أكثر أوقاتهم في الهور يتحرّون الاسماك، وذلك بتسديد «فالاتهم» الى أيّة حركة تظهر في الماء أو في منابت البردي أو في جذور القصب يحتمل أنها حركة سمكة. وحينما يسدد المعيدي «فالته» نحو حركة

(١) See the Mandaeans of Iraq and Iraq, by E. S. Drower.

(٢) المانوية دين قديم أسسه رجل فارسي اسمه «ماني» بعد الميلاد بـ ٢٠٠ سنة. ويعتقد اصحاب هذا الدين ان جسم الانسان مخلوق من الشيطان وروحه من الله، وان عناصر الخير والشر الموجودة في جسم الانسان في صراع دائم. -المترجم-

(٣) القديس يوحنا المعمدان هو النبي يحيى ﷺ الذي ورد ذكره في القرآن الكريم. وهو الذي قام بتعميد سيدنا المسيح ﷺ وبشر بظهوره وتوقع قيام اليهود بقتله. -المترجم-

الماء التي قد تتمخض عنها سمكة فإنه قد يصطادها، واذا أخطأ انتشل « فالته » من الماء وتابع حركتها، فاما ان يحظى بها أو يخسرها. ويصطاد الرجل عادة في اليوم الواحد ثلاث أو أربع سمكات. وحينما يصطاد السمك من ضفة النهر فإن الصياد يربط « فالته » بحبل حتى يستطيع استردادها كلما سدد ضربة الى سمكة من الاسماك. وكثيراً ما يثبت الصيادون أعواداً من القصب متقاربة بعضها الى بعض قرب ضفاف النهر، ويضعون خلفها سلسلة من الحصران لصد تيار الماء، بحيث اذا ما استقرت سمكة هناك تحركت بعض أعواد القصب فأثارت انتباه الصياد. وعندئذ يرمي الصياد « فالته » في هذا المكان. ويصطاد المعدان السمك ليلاً على ضوء مشاعل البردي. وقلّ ان يسافر المعدان في قواربهم بلا « فالاتهم » التي يتسلحون بها ضد الخنازير الوحشية الموجودة في منابت البردي. واذا ما استطاعوا التقرب فيستعملونها لصيد دجاج الماء والرخيوي والبط والبريزجي والهليجي. ويصيد المعدان الاسماك بطريقة استعمال أقراص « الزهر » السام المصنوع من الدقيق والذروق، أو يضعونها في « روبيان »[1] المياه العذبة، ويلقونها في النهر، بغية جر الاسماك اليها. وحينما تأكل السمكة قرصاً من هذه الاقراص تصاب بدوار وتطفو على سطح الماء، فيسهل عندئذ اصطيادها. ويؤلف صيادو الاسماك المحترفون أو البربرة، الذين يستخدمون الشباك في الصيد جماعة معينة، وينظر اليهم رجال القبائل نظرة ازدراء واحتقار. لكن رجال القبائل المعوزين يمدون اليهم يد المساعدة أحياناً، ولهذا فان التعصب ضدهم قد أخذ يضعف شيئاً فشيئاً. ولا يستخدم « البربرة » الفالة في صيد السمك أبداً، بل الشباك. وهي اما ان تلقى من « ابلامهم » أو تترك عائمة أو مثبتة فوق سطح النهر. ولقد شاهدت القاء الشباك « سليّة » في المجر الكبير والبصرة ولم اشاهدها في الاهوار. ويعيش كثير من « البربرة » في منطقة آل ازيرج أو في المجر أو في « الجبايش »». ومع انهم لا يستقرون على العموم في منطقة واحدة الا ان بعض القرى لا يسكنها غيرهم، ويصطادون السمك في مناطق مختلفة، تتفاوت بالنسبة الى الموسم والى ارتفاع مناسيب المياه في الاهوار. وفي مواسم الفيضانات ـ بصورة وقتية ـ الواقعة شمال الاهوار؛ وفي أواخر موسم الفيضان يقومون بصيد السمك في بزايز الانهر التي تصب في فيها. وحينما تنخفض مناسيب المياه يتوجهون الى الاهوار نفسها حيث يجدون في الغالب كميات كبيرة

(١) الروبيان نوعان: نوع يعيش في المياه المالحة ونوع في المياه العذبة، كمياه الاهوار الا ان حجم الاول أكبر من الثاني.
ـ المترجم ـ

من الاسماك في البرك الكثيرة المتكونة بسبب تناقص مياه الاهوار .

وفي أواخر شهر تشرين الثاني من عام ١٩٥١ قمت بزيارة بركة « أم البنّي » وكانت مناسيب المياه منخفضة جداً . وتقع هذه البركة في الشمال الشرقي من « الجبايش » وفي أعماق الاهوار الوسطية . وتبلغ مساحتها حوالي خمسة أميال مربعة . ان بعض البربرة الذين كانوا يصطادون السمك في اثني عشر بلماً ، ومعهم مئات من رجال القبائل المدججين بالفالات جمعوا حوالي اربعين الف سمكة في يوم واحد . وقد كانوا يقومون بعملهم هذا قبل عشرة أيام من وصولي اليهم . لقد حصلت على هذه الاحصائية من تاجرين كانا هناك لشراء كمية من السمك بسعر ثلاثة دنانير لكل مائة سمكة بغض النظر عن زنة كل واحدة منها . وتزن السمكة الواحدة حوالي الرطلين . وقد استأجرا عددا من الابلام لنقل الاسماك في مساء كل يوم وارسالها الى « الشطانية » الواقعة على حافة الاهوار الشرقية حيث تفرغ في شاحنات كبيرة وتتجه الى بغداد . ويدفع التاجر الى كل ملاح حوالي ديناراً واحداً أجرة لنقل الاسماك من منطقة الصيد الى الشطانية ، وهو عمل شاق جداً بسبب انخفاض منسوب المياه في مجاري المياه المملوءة بالحشائش والادغال . وكان البربرة يرمون شباكهم في البرك الضحلة ، وكان أكثر السمك الذي يصطادونه من نوع « البني » ، بينما كان أكثر السمك الذي يصطاده رجال العشائر بالفالات في حافات منابت البردي ، من نوع « القطان »[1] . وقد سمعت ان المعدان اقتحموا بمشاحيفهم منابت البردي الى بركة أخرى قريبة تسمى « الخزنة » ، وانهم حينما وصلوها وجدوا سطحها مغطى بالاسماك الميّتة من جراء تصادمها وازدحامها . وقد تجمعت لدى بعض المعدان مبالغ ليست بالقليلة ، ولكن الظروف كانت استثنائية . وعلى العموم فلا يستطيعون ان يصطادوا سمكاً يفي بحاجاتهم الخاصة إلاّ نادراً ، وغالباً ما يسدونها بشراء السمك من البربرة الذين قد يستطرقون من هناك .

صناعة البواري :

ويترك بعض المعدان الاهوار في أواخر شهر نيسان ليقدموا خدماتهم في حصاد الحنطة والشعير في منطقة الغراف والمجر الكبير والكحلاء حيث ينالون مقابل اتعابهم عينات من الحنطة والشعير . ويذهب قليل منهم أيضاً الى البصرة للاشتغال في مراكز تعبئة التمور خلال شهري ايلول وتشرين الاول . ويستطيعون كذلك ان يجمعوا بعض المال من جراء

(١) ان السمك الذي يؤكل في الاهوار هو : البني ، والقطان ، والشبوط ، والشلق ، والحمري ، والصبور ، والخشني .

قيامهم ببيع البواري والقصب، حيث تقع عليها طلبات كثيرة من القرى والمدن. وهذا الطلب لا يمكن ان تسده الا الاهوار. وفي سنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٥٣ بيعت الـ ٣٠ بارية بما يعادل دينار واحد في الاهوار الوسطية. وتصدر كميات كبيرة من البواري والقصب خلال موسم الربيع من منطقة «النوافل» الواقعة شرقي نهر دجلة. ويحزم القصب باعداد كبيرة قد تبلغ طول كل حزمة منها ٦٠ قدماً وعلوها ١٢ قدماً تعرف «بالكارة» وتطلق في النهر مربوطة بعضها الى بعض وتسير منحدرة مع تيار الماء في طريقها الى مدينة البصرة. وتصدر قبيلة بني أسد التي تسكن حوالي «الجبايش» كميات كبيرة من البواري. وفي قرى الاهوار عطارون متعددون، وتتميز حوانيتهم من الاعلام البيضاء الصغيرة المرفرفة فوقها؛ ويستطيع المعيدي ان يتزود منها بالشاي أو السكر أو الملح، والشخاط أو الاقمشة أو الطحين أو قليل من التمور. وقد شاهدت في قراهم نولين أو ثلاثة ينسجون بها العبي السميكة، ولكن ينبغي ان يسدوا أكثر حاجاتهم الاخرى من أقرب مدينة تقع على مقربة منهم، ويتسوق معدان الاهوار الوسطية من قرية المجر الكبير أو الجبايش. ويبدو لي ان حالة المعدان الغذائية هي على العموم أحسن من حالة أكثر عشائر العراق الجنوبية، ما دام الحليب والسمك متوفراً لديهم أكثر من غيرهم. ويتناولون في الاعم الاغلب قليلاً من الخبز وأقداحاً من الشاي، ان توفرت، عند الافطار. وحينما يذهبون لاصطياد الاسماك بالفالات أو يجمعون القصب في المشاحيف فانهم يستصحبون معهم بعض الخبز وقليلاً من الزبدة أو الجبن. ان وجبة العشاء هي الوجبة الاساسية ويتناولونها بعد مغيب الشمس مباشرة؛ وتتكون من السمك المشوي والرز (الطبيخ) أو من خبز الطابق (رغفان) المصنوع من طحين الدرز أو الدخن، والذي يتناولونه مع الحليب أو القشطة. وفي موسم الشتاء يصطادون عدداً من الطيور المائية ببنادق قديمة يصنعون خراطيشها محلياً من البارود ونفايات الحديد. فيأكلون الخضيري والبط ودجاج الماء والرخيوي والبريزجي والهليجي. ويصطادون «نعيج الماي» للاستفادة من «حوصلته» في صنع الدفوف اليدوية الصغيرة لا للأكل. والحليب والشاي هما شراب المعدان. ويشربون الشاي قاتم اللون، حلوا، ويعبونه بدون حليب من زجاجات صغيرة (استكان). وقليل منهم اليوم، ان لم يوجد، من يصنع القهوة لفداحة اسعارها، ولا تقدم الا في مضايف الشيوخ الكبرى الواقعة خارج الاهوار. وأكثر المعدان يدخنون، حتى الاولاد الصغار الذين لا يتجاوزون الرابعة أو الخامسة من العمر. ويستعملون القصب وفضلات الجاموس (المطال) وقودا لهم. وفي مثل هذا المناطق هناك خطر نشوب الحرايق ولا سيما في الايام العاصفة، ويمكن ان تسبب مثل هذه



الحرائق كارثة عظيمة في جزيرة تزدحم فيها البيوت وتتلاصق. وتشب الحرائق في البيوت وتلتهمها في ثوان قليلة، ويمكن أن تقضي النيران على القسم الاعظم في القرية قبل ان يستطيع الناس اخراج امتعتهم من بيوتهم.

ويرتدي المعدان قليلاً من الملابس. وصغار الاطفال عادة عراة؛ وكثيراً ما يتحلى الاولاد منهم «بأطواق» فضية مرصعة بأحجار ملونة. ويرتدي الرجل عادة القميص العربي الطويل المسمى «بالدشداشة» الذي يرفعه أو يخلعه عندما يدخل في الماء. ولا يلبس المعيدي الحقيقي الالبسة الداخلية. ويرتدي الايام الباردة أو في المناسبات العامة عباءة صوفية سوداء تعرف عندهم «بالهدم»؛ وكثيراً ما لا يرتدي شيئاً حينما يدفع أو يجذف مشحوفة سوى عباءته التي يطويها على محزمه. ويحلق المعدان اليوم شعورهم تماماً، أو يقصونها قصيرة جداً، وكانوا قبل هذا يرسلون ضفائرهم طويلة، ويطلق كثير من الرجال المسنين لحاهم، ولكن الشباب يحلقون عادة. ويغطون رؤسهم دائماً تقريباً بغطاء قطني يسمونه (الشطفة) أو اليشماغ، من نوع لباس الرأس الذي يستعمله الشيعة في جنوب العراق. وقيل منهم من يلبس العقال (فتل) اثناء وودهم في قراهم، ويتمنطقون بالخناجر القصيرة والمعقوفة في أكثر الاحايين ويشدونها الى محازمهم. ويملك بعضهم البنادق (تفگ)، ولكنها عادة غير صالحة، وأكثر العتاد (فشگ) يصنع محلياً. ومن أسلحتهم الاخرى المكوار (صخر) والفالات.

الغناء والرقص:

ان جميع المعدان يتمتعون بالغناء والرقص، الا منطقة «الصيقل» التي يسكنها آل عيسى، من عشائر المنتفگ الرعاة، الذين توغلوا في الاهوار؛ فقد منع شيوخهم الغناء والرقص من حيث انه لا يليق بالمسلمين الا الرقصة الحربية (هوسة). وفي مناطق أخرى يتمتع الاولاد والرجال ذوو الاصوات الجميلة بشهرة واسعة. ويؤلف المعدان الاغاني (بستة) الجديدة عادة ويغنونها حينما يجذفون مشاحيفهم أو يقطعون القصب أو يجلسون حول النار في أمسياتهم. وحديثاً تزوج أحد شباب الشيوخ الاغنياء جداً من قبيلة تسكن حافة الاهوار فتاة من قرية بعيدة، غير ان الزواج سرعان ما فشل، فطلق الشيخ الشاب زوجته، فثأرت لنفسها بأن وضعت أغنية مطلعها:

گـالو لي المسرب عنك ظالم من زغر سنك[1]

---

(١) في طريقي لزيارة قرية «الصحين» التي في الاهوار الوسطية صباح يوم ٢٥ كانون الثاني سنة ١٩٥٦ والتي تسكنها

ولهذه لاغنية لحن أخاذ سرعان ما انتشرت الى مناطق العراق الجنوبية قاطبة. وفي مساء كل يوم يجتمع المعدان في بيت الرئيس أو في بعض البيوت الكبيرة الاخرى الموجودة في القرية يتجاذبون أطراف الحديث ويشربون الشاي ويدخنون. وقد يبادر أحدهم بالغناء بعد انقضاء فترة قصيرة، ويشاركه آخرون. ثم سرعان ما يبعث بأحد الاولاد الى القرية ليجمع الدفوف من الطين المفخور على هيأة مزهرية، ويتراوح طول الدف ١٨ عقدة. ويبلغ عرض نهايته الكبرى ثمانية عقدات، وتغطى هذه بجلد رقيق، اما نهايتاه الاخرى فتبقى مفتوحة. وينقرونه بأصابعهم. ويستعمل ابناء العشائر الرعاة المطبق (ما صول) ولا يستعمله ابناء الاهوار. ويتألف الجوق الواحد عادة من دفين أو ثلاثة ومن زنجاريتين أو ثلاث؛ ويوجد من بين الحاضرين دائماً كثير من الرجال الذين ينقرون هذه الآلات. وسرعان ما يعرف كل واحد في القرية ان حفلة (رقص) توشك أن تبدأ؛ فيتقاطر الرجال والاولاد، لا النساء، على البيت الذي ستحيى فيه الحفلة من كل مكان، وسرعان ما يطوق ذلك البيت بالمشاحيف الفارغة. ويجلس كل واحد على الارض، ويشترك أكثرهم في الغناء، ويتابعون نغمات الموسيقى «بدق الاصبعتين» وضرب الارض بكعوب الارجل اليمنى عادة. وعندئذ يتشجع الاولاد، فينهضون ويرقصون أما بصورة منفردة أو ثنائية أو ثلاثية. ويختلف رقص كل ولد عن الآخر ما دام كل واحد منهم يتخذ لنفسه طريقة معينة فيه، ولكن حركتهم العامة موحدة ومثيرة وقلما تكون خارج حدود الادب واللياقة. وأكثر الشباب والاولاد، وبعضهم من صغار الاطفال، يستطيع (الرقص)، وأكثر الفتيان رجولة أمهرهم رقصاً عادة. ويتمتعون بالرقص كما يتمتعون بالغناء، ولكن أحدهم يأبى ان يسمى «بالراقوص»، لان هذه الكلمة لا تطلق عادة الا على المحترفين، في حين ان كلمة «رقص» بصيغة الفعل لا تنطوي على اهانة وتحقير. ومع ان الرقص الذي يقوم به ابناء القرية يشابه الرقص الذي يقوم به المحترفون لدرجة كبيرة فانهم انما يقومون به متعة وتسلية في حين ان الممتهنين يعدونه مهنة وحرفة. ويعيش أكثر الممتهنين في القرى الواقعة خارج منطقة الاهوار، يوتجولون في الارياف لاحياء حفلات زواج مهمة، أو في مناسبات الاعياد الاخرى. وقد شاهدت أحد هؤلاء الممتهنين، وكان عمره

القرطوس تحزيت أصل الاغنية باللغة العربية الدارجة من أحد «دوافيع» المشحوف الذي كنت فيه واذا بها:

گـالولي العـرب هسنك ... ظـالم مـن زغـر سـنك

بـهجرك هـذيت حـالي ... الله يـنتقم مـنك

- المترجم -

حوالي عشر سنوات؛ وقد تزيا بزي راقصة غجرية، وكانت حركاته خلال الرقص ضعيفة ومع هذا جذابة، وكانت خليعة وشهوانية. ولكنه حينما أنهىٰ رقصته وجلس علىٰ مقربة مني وجدته ولداً صغيراً ساذجاً وجذاباً. وهذا القول لا يمكن ان ينطبق بالطبع علىٰ الاولاد الآخرين الذين شاهدتهم هناك، وان كانوا، من حيث أنهم راقصون، يتصفون بحسن الحركات وانسجامها ومواصلة الرقص دون كلل ولا تعب. وأغلب المحترفين لا تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة، ويسمون «ذكر بانثىٰ» أي مخنثين، وهي تسمية تدل علىٰ الازدراء والاحتقار، ويتزيون، عند الرقص بزي البنات، وعادة ما يكون لباسهم قرمزي اللون، ثم ان حواجبهم ملقوطة ونهودهم مصطنعة ووجوههم محمرة، ويلبسون أحياناً ألبسة موشاة باللؤلؤ الاصطناعي، ويضعون في آذانهم أقراطاً، ويرسلون شعورهم التي قد تصل الىٰ أسفل اكتافهم، ويعنون بها عناية فائقة، ويضعون فيه بعض الدهون المعطرة، ويحركونه اثناء الرقص يميناً وشمالاً. ويمسكون الصنوج (الصجاجيغ) في أطراف أصابعهم. وهذا مالم أشاهده في هذه المناطق الا عند هؤلاء الاولاد الراقصين أو عند بنات النوَر (الغجر) في المدن. وقد شاهدت مرة ولداً جميلاً جالساً علىٰ مقربة من احدىٰ المضايف الواقعة في الاهوار الوسطية، وقد امتاز عن غيره بشعره الطويل المطيب. واكتشفت أخيراً ان ما شاهدته لم يكن ولداً بل فتاة تتزيّا دائماً، كما أخبرني مرافقي، بزي الرجال، وتعيش معهم كأحدهم، وحتىٰ انها تتناول معهم الطعام، ويمونها «بالمسترجلة»[1]، ويعللون انحرافها الجنسي بقولهم انها تحمل قلباً كقلب الرجل. ويبدو ان في الاهوار عدداً كبيراً منهن.

حفلات الزواج:

والزوزاج عند المعدان فرصة كبيرة دائماً لاقامة الافراح والمسرات. فاذا كانت العروس التي قد تمت خطبتها تنتسب الىٰ قرية أخرىٰ فيذهب أصدقاء العريس صباح يوم الزفاف في مشاحيفهم لاستقدامها. ولا يصطحبهم العريس في هذه المناسبة بل يبقىٰ ملازماً داره. ويمضون معظم ذلك النهار في قرية العروس يغنون ويرقصون. وفي المساء يتجمعون حول بيت العروس ويرددون الهوسات، ويقوم أحدهم بالقاء أبيات من الشعر باللغة العامية، ثم تتبعها «هوسة» يلقفها الحاضرون وقد أخذوا يتحركون بصورة دائرية ويلوّحون

(١) أخبرني سي. جي. أدمونس (مستشار وزارة الداخلية سابقاً ـ المترجم ـ) انه زار مرة بيت أحد أغوات الاكراد، واذا بفتاة تقدم اليه القهوة وقد تزيّت بزي رجل وتسلحت كما يتسلح الرجل.

باسلحتهم ويطلقون منها بعض العيارات النارية . وبعدئذ تتوجه العروس الى قريتها الجديدة في مشحوف تحف به مجموعة من المشاحيف العديدة وقد تعالى من ركابها الغناء وأزيز الرصاص . ويقف هؤلاء « الزوانيف » في كل قرية يمرون بها ، وينزلون من مشاحيفهم ويهوسون امام بعض بيوت القرية . ويبلغ الفرح ذروته حينما يقتربون من بيت العريس شيئاً فشيئاً . وقد حضرت حديثاً حفلة زفاف ولد يتيم اسمه « داخل » . وقد باع كل ما يملك تقريباً وقدمه مهراً ؛ ولم يكن عنده كوخ يأويه . وقد نصب في ناحية من نواحي بيت ابن عمه ناموسية صغيرة حمراء لتكون غرفة لعروسه . وقد أمضى جل نهاره في توسيعها . ولما كان « داخل » ينتسب الى عشيرة غير العشيرة التي ينتسب اليها سكان القرية ، فلعل زواجه سيكون حدثاً بسيطاً ، ولكونه صديق قديم ذهبت مع الذاهبين وأطلقنا عدداً كبيراً من العيارات النارية ونحن في طريقنا لجلب عروسه . قد استهوى اطلاق النار رجال الاهوار الساكنين في القرى المجاورة وأصبح زواجه ،بالنسبة لهذه القرية على الاقل ، أهم حوادث السنة . وفي المساء ازدحم البيت بالقادمين ازدحاماً بلغ حد الاختناق ، واضطر كثير من الناس ان يجلسوا خارج المكان في مشاحيفهم ، بينما كان الرقص (ربّما يقصد الهوسات) داخل البيت قائماً على قدم وساق . وتركت البيت في منتصف الليل ، ظناً مني ان « داخل » سيسرة انفضاض المجتمعين . وحينما رأيته في صباح اليوم الثاني لم أجد على رأسه العقال ، وكان قميصه قد مزق شر تمزيق . وقد قال أصدقاؤه الذين ظلوا في البيت أنه حينما دخل على زوجته أخرجته من البيت وقذفته بالماء ؛ قالوا ذلك ساخرين ولكن « داخل » أنكر هذه التهمة أشد النكران . ومن عادة العرب هنا ان يطلق الرجل عيارات نارية حالما يدخل بزوجته . ولا شك ان « داخل » قد أطلق هذه العيارات .

حفلات الختان :

وتحتفل العشائر العربية الاخرى بختان أولادها باحياء حفلات الرقص والغناء ، وتستمر هذه الاحتفالات أحياناً اسبوعاً أو أكثر ، ولكن المعدان لا يتخذون منها مناسبات لافراح خاصة الا اذا احتفل بختان أولاد الشيوخ . وتطلق أحياناً بعض العيارات النارية ، كما تطلق بعض الهلاهل من أم الولد . وتجري عملية الختان دائماً في المواسم الدافئة ، ويوضع الولد على « جاون » كبير وسط جمع غفير من الناس قد يضم بعض النساء . وبعد ان يُختَن تسد

مناخيره ويعلق بعض البصل حول عنقه حتى يلتئم جرحه[١]. والختان عند المسلمين واجب، ولا سيما عند القبائل العربية، وأكثرهم يرفضون أكل لحم حيوان مذبوح من (ولد = رجل) لم يختن بعد. وتجري عملية الختان للاولاد الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والعشرين. وكثير من المعدان قد تفوتهم فرصة اجرائها، وقد يؤجلونها أحياناً حتى يتقدم أحدهم في السن. ويعتذر بعض رجال القبائل من اجرائها بدعوى ان الملائكة قد ختنتهم عند الولادة (طهور الملائكة)، في حين ان اولئك الذين قد أجلوا اجراءها الى سن متأخر، يمانعون في ذلك بحجة عدم وجود من يقوم بتربية جاموسهم خلال مدة الاستجمام بعد علمية الختان التي قد تستغرق شهراً أو أكثر[٢]. ويطلق المعدان كلمة «صَبّي» تقريعاً لمن لم تجر له عملية الختان، اذ ان «الصابئة» لا يختنون أولادهم. ويبدو ان عادة ختان النساء قد اقلعت عنه حديثاً أكثر هذه العشائر.

الطقوس الدينية:

والمعدان شيعة كأكثر عرب جنوب العراق. ويدّعي عدد كبير انهم «سادة»، أي منحدرين من سلالة النبي محمد ﷺ ويميزون أنفسهم عن القبائل الاخرى بلباس الرأس الاخضر والاسود بدلاً من اليشماغ المطرز بالاسود والابيض. وقلّ ان تخلو قرية من عائلة أو عائلتين من هؤلاء «السادة»؛ وتوجد بعض القرى المأهولة كلها «بالسادة»؛ وأعتقد ان نسبة المعدان الذين يدعون انهم «سادة» قد بلغ ٥ بالمائة. ويتمتع «السادة» باحترام عظيم بين أفراد العشائر، ولكنهم يعيشون على العموم عيشة لا تختلف عن عيشة الآخرين، وهم ليسوا طفيليين كأكثر «السادة» في حضرموت. وبعضهم فقراء جداً. وأكثر المعدان متهاونون في أمور دينهم. وقليل منهم من يعرف أداء فريضة الصلاة، وأقل من هؤلاء من يصوم شهر رمضان. وقد شاهدت المعدان مرتين أثناء حفلات الرقص يمثلون الصلاة بشكل فاحش مزري. وحينما يؤدون فريضة الصلاة يضعون، كغيرهم من الشيعة، طينة مقدسة (تربة) أمامهم ويمسونها بجباههم عندما يسجدون. وفي احدى مناسبات الرقص وضعت طابوقة

---

(١) من عادة قبائل الرعاة، لا المعدان، ان يلبس الولد حول رقبته مسبحة أو مسبحتين بعد عملية الختان الى ان يندمل جرحه. وهذه العشائر تعتقد كلها ان الجرح سيورم اذا ما استنشق الولد الخبز الحار أو أي رائحة زكية، أو اذا تناول سمكاً أو روبة أو زبدة أو رقياً.

(٢) لقد قيل لي ان رجلين مسنين من عشيرة الفوليه الكبيرة قد ختنوا فقط. وهذه حالة شاذة بالطبع، ولكن كثير من العشائر الشيعية في جنوب العراق، سواء أكانوا من الرعاة أو المزارعين، يتساهلون في اجراء عملية الختان.

على الارض وأخذ أحد الاولاد المشتركين في الرقص يمسها بجبهته في فترات متعاقبة ويسجد للصلاة وقد جعل القبلة وراءه بينما وقف الثاني خلفه. وأخذ الحاضرون يرددون سبحان الله - الله أكبر. ويقصد ايران عدد من المعدان لزيارة مشهد الامام الرضا ، ويلقب كل واحد منهم بـ« زاير ». وقليل منهم من زار مكة وأدى فريضة الحج، وان كانت الزيارة لا تزيد صعوبة أو نفقة عن زيارة مشهد الرضا . ويزور كثير منهم العتبات المقدسة في العراق، والاضرحة المحلية كعلي الغربي وعلي الشرقي [(١)]، أو ضريح ابن علي [(٢)] قرب مدينة العزير. وحينما يتوفى أحدهم يرسل جثمانه الى النجف عند توفر الامكانيات حيث يدفن هناك. وتدفن النساء والاطفال في أي جزيرة من جزر الاهوار. وحينما يتوفى أحدهم فان عائلته تطلق حالاً عدة عيارات نارية في الهواء؛ ومن الممكن أحياناً معرفة أهمية الشخص المتوفى من عدد العيارات النارية التي تطلق بهذه المناسبة. وتقدم التعازي عادة من الاصدقاء الى عائلة الفقيد، ويندب المعزون الراحل عقب وصولهم الى البيت، ويستمرون في اظهار حزنهم وأسفهم ما داموا موجودين في البيت. وفي عام ١٩٥٢ كنت في الاهوار حينما حل شهر محرم الحرام. وفي بعض الاماكن شاهدت القرويين يجتمعون مساء كل يوم ويعلنون حزنهم على الامام الحسين ، ويتولى أحد « السادة » شرح قصة مقتل الامام الحسين ، ولم أجد في القرى الاخرى أي محاولة للاحتفال بذكرى هذا الحادث، في حين يحتفل بها في كل منطقة من مناطق العالم الشيعي خلال الأيام العشرة الاولى من شهر محرم. ويقسم المعدان، كأكثر الشيعة، بـ« علي » و« العباس » أكثر مما يحلفون بالله ويقسم كثير منهم بـ« فؤادة »، وهي امرأة علوية مدفونة في الغراف. ويحلف بعض أفراد قبيلة ألبو محمد بقسم غريب وهو (ولبن أمك). وقد سمعت سكان الا هوار يقسمون أيضاً بـ(وحق هذا القمر)؛ وغالباً ما يحلفون بـ(وحق هذا المضيف وبخته). ويحترز الشيعة عادة من الشرب بالقدح الذي يشرب منه المسيحي الا بعد ان يطهر بالماء، ولكن قلَّ ان حدث لي مثل هذا الحادث مع المعدان مدة بقائي معهم. وقليل منهم متعصبون. وتشيع الاسماء غير الاسلامية بينهم، ولا سيما اسماء

---

(١) هو علي الشرقي بن أحمد بن محمد بن داود الامير بن موسى الثاني بن عبد الله بن جون ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . راجع صفحة ١١٧ من كتاب عمدة الطالب في انساب ابي طالب، تأليف ابن عتبة النسابة، طبع النجف.

(٢) هو عبد الله بن علي بن ابي طالب . يقع قبره على بعد عشرة كيلو مترات من جنوب مدينة قلعة صالح. راجع الجزء الثاني من كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي.

- المترجم -

الحيوانات ، ومما يدعو الى الدهشة والاستغراب ان تجد رجلاً قد سمي بـ« خنزير » ، أو « ضبع » أو « جحيش » أو « برغوث » أو « جراد » أو « كوسج » أو « عفريت » أو « بعرور »[١].

الامراض والاوبئة :

ويعاني المعدان كثيراً من الامراض والاوبئة بسبب الاحوال التي تكتنفهم . ومع ان الحكومة العراقية قد فتحت عدداً من المستشفيات في البصرة والعمارة والناصرية وعدداً من المستوصفات في بعض المدن الصغيرة كالمجر الكبير وقلعة صالح والجبايش ، ولكن من الصعب على المعيدي أحياناً ان يجد متسعاً من الوقت لمراجعة هذه المستشفيات والمستوصفات طلباً للعلاج ، اذ يضطر الى ملازمة دوابه أو حقول الشلب . واتصال أكثر المعدان بالعالم الواقع خارج الاهوار قليل جداً ، ويفضلون ، اذ ما أصيبوا بمرض ، ان يمكثوا في فراهم آملين ان تتحسن صحتهم . وكنت دائماً أحمل معي صندوقاً كافياً من الادوية ؛ ومع انني لم اتدرب في الامور الطبية فقد اكتسبت خبرة عملية في الطب والاسعافات الاولية خلال السنوات العشرين التي قضيتها متجولاً في بعض المناطق النائية . وحينما أعيش بين المعدان استطيع أحياناً ان أمد لهم يد المساعدة ، ولكن كنت في الغالب أتراجع عن مداواتهم بسبب جهلي بالامراض .

ان أمراض البلهارزيا والزحار والبجل[٢] أو البشل كما يسميه المعدان ، هي الكوارث التي تهدد سكان الاهوار . والبلهارزيا من الامراض المستوطنة ، وأكثر سكان مناطق الاهوار مصابون بها لا محالة . والزحار ، سواء الاميبي منه أو الباسيلي ، منتشر فيها . والمياه المحيطة ببيوتهم ملوثة دائماً ، ويصح هذا بصورة خاصة حينما يسكن المعدان في بيوت مزدحمة تقع على جزيرة صغيرة ، ويستعملون شواطئها كمرحاض عام . وقلما تبتعد النساء اللواتي يملأن جرارهن ماء عن الشاطىء أكثر من بضعة أقدام . ويشيع البجل ، وهو من الامراض الزهرية ، بين المعدان . وتظهر على جلد المصاب قرح مفزعة . ومن الصعب على غير المختص ان يميزه عن السفلس . وقد وجدت بعض الاصابات في مرض السيلان . ويصاب المعدان كثيراً بالديدان

---

(١) من الاسماء الغريبة الاخرى التي يستعملها المعدان : چليب ، جريدي ، باكور ، عتوي ، حولية ، واوي ، قنفذ ، عنزة ، شبل ، برهان ، هليبجي ، غراب ، طويرة ، برغش ؛ دكة ، رفش ، شبوط ، قطان ، بني ، حمرية ، جري ، عجد ، شلج ، شوكة ، حنظل ؛ ركية ، خلاله ، طبيخ ، صحين ، عظيم (تصغير عظم) ، جلد وغالباً ما تستعمل صيغ التصغير .

(٢) يبلغ عدد المصابين بالبجل في لواء العمارة حسب تقرير وزارة الصحة ١٦,٦٣٢ شخصاً ، ٧٤٨٨ من الذكور ، و٩١٤٤ من الاناث . ـ المترجم ـ

الشصية والمستديرة بسبب تناول السمك غير المطبوخ جيداً، وكثير منهم، ولا سيما الاطفال، مصابون بالديدان الخيطية، وأكثرهم مصابون بفقر الدم بسبب أمراض البلهارزيا أو الزحار أو الديدان. والقرع شائع بين الاطفال، يصاب كثير منهم بصلع دائم[١]. ويتشكي جميعهم تقريباً من أوجاع المعدة، وكذلك أوجاع الروماتزم كلما تقدموا في السن، ويتشكى عدد كبير من الطاعنين في السن من آلام مرض الروماتزم الظهري، ويصابون بمرض البواسير أسوةً بغيرهم من العرب. وتقل أمراض العيون عندهم اذا ما قيسوا بالبدو، ولكن أمراض التراخوما وظلام عدسة العين والحول منتشرة بينهم. وقد وجدت اصابة واحدة بمرض الجذام[٢] في الاهوار واصابات متعددة بالاستسقاء. وبالرغم من كثرة البعوض في الصيف فان الملاريا قليلة هناك، وان كان موجوداً بكثرة في حافات الاهوار[٣]. ونسبة الوفيات عالية ولا شك جداً بين الاطفال. فقد انتشر في خريف عام ١٩٥٢ وباء السعال الديكي بين الاطفال وأدى الى وفاة عدد كبير منهم. ويكثر الذباب في فصل الربيع وتقضي عليه الحرارة في فصل الصيف، ولكنه لا يزعج كثيراً كما يزعج خارج منطقة الاهوار باستثناء المناطق التي تصطاد فيها الاسماك. والبرغوث أكثر ازعاجاً من غيره. فهو يصول ويجول في بيوت المعدان خلال موسم الربيع، ولا يدع لساكنيها ان يناموا الا قليلاً. فكثيراً ما تهاجم الشخص مئات البراغيث ليلاً مرة واحدة. وفي هذا الموسم تتطاير سحب كثيفة من البرغش من منابت القصب، ومع انها لا تعض ولكنها مزعجة، بحيث تملأ عيون الانسان ومنخره. وحينما يختفي الذباب والبرغش لدرجة كبيرة بسبب حرارة الصيف يتكاثر البعوض (البق) تكاثراً عظيماً، وقد يتجمع باعداد هائلة في بعض مناطق الاهوار. وفي موسم الخريف يتكاثر الجرمس الذي يجعل النوم ليلاً من الامور المزعجة حقاً، لا سيما في المناطق الواقعة خارج منطقة الاهوار.

الطيور والحيوانات:

وفي موسم الشتاء تكثر الطيور المائية في الاهوار. ولقد شاهدت أسراباً من الخضيري duck تحلق فوق حقول الشلب عند شروق الشمس الذي ذكرتني بأسراب الجراد الهائلة. وفي

---

(١) في احدى الايام الحارة التي تكاد تقف فيه حركة الهواء كنت في قرية من قرى قبيلة ألبو محمد، وقد قال مضيفي اذا استطاع أحد ان يعدد اربعين رجلاً أقرع فسنحصل على نسمة الهواء التي نحتاجها. ونظراً لانتشار القرع فلا يتعذر والحالة هذه من تسمية العدد المطلوب.

(٢) بلغ عدد المصابين بهذا المرض في مستعمرة الجذام الواقعة في لواء العمارة (٣٢٠) اصابة في سنة ١٩٥٦.

(٣) ان بعوض الانوفيلس Anopheles pulcherrimus السائد في الاهوار لا ينقل الملاريا نقلاً قوياً بل ضعيفاً. والبعوض الذي يشاهد خارج الاهوار من نوع Anopheles Stephensi ينقل مكروب الملاريا أكثر من غيره.

هذه المناطق يشتي جميع أنواع الخضيري الاوروبي كما يشتي الوز الاملح marbled duck (ملحة) حيث يظل فيها للتفريخ. ولشد ماكنت مسحوراً حينما مرت على أسراب لا حصر لها من الاوز الاوروبي geese وقد ملأت الفضاء بصياحها. وهذا الوز على نوعين أبيض الجبهة وأغر الجبهة. ويتأخر بعض من هذا الوز، الاغر الجبهة، حتى نهاية شهر مارت ليفرخ في منابت البردي الواسعة، ويفتش المعدان عن اعشاشه ليأخذوا بيضه ويفرخوها تحت الدجاج بعدئذ. وقد شاهدت أفراخها في القرى الواقعة في الاهوار الوسطيّة والشرقية وفي منطقة الدجيلة. وتصل الى هذه المناطق أيضاً اعداد كبيرة من دجاج الماء خلال موسم الخريف وتظل بعد مغادرة البط فترة قصيرة خلال موسم الربيع. ويتجمع دجاج الماء بالمئات في البرك وفي مجاري المياه الواسعة، وحالما يحلق أحد النسور واطئاً حول منابت البردي فانها تتجمع بعضها الى بعض وتضرب باجنحتها فيتطاير من حواليها الماء خوفاً منه وفي الاهوار اعداد كبيرة من نعيج الماء Pelican[1]. ويظل بعضه فيها للتفريخ أيضاً، وقد شاهدت المعدان خلال شهر تشرين الثاني يتصيدون صغاره، وهي لا تقوى على الطيران بعد، بفالاتهم في منطقة «أم البني». ولم أشاهد طير الفرنوق flamingo في هذه الاهوار الا مرة واحدة في أواخر شهر مارت. اما البغيلي (أو الغاق) comorants والغاق الاقزم phygmy وأبو السهم darters والغطاس grebes ومالك الحزين herons، بما في ذلك مالك الحزين الجبار goliath heron وابو ملعقة spoonbills وأبو منجل ibis والعويدي curlews و stilts، و avocets والطيطوى sandpipers والجهلول smipe، والنعاق (نورس) gulls والخطاف term وصقير السمك aspreys وصقر الفيران harriers فانها تلجأ الى هذه الاهوار خلال الاشهر الباردة من السنة، ويتسلح المعدان في الاعم الاغلب ببنادق بدائية ويذهبون لصيدها من الفجر حتى الغسق. ويشق الصياد طريقه في الماء البارد متخفياً وراء حزمة من البردي ويتقرب نحوها ليصيد أكبر عدد من الوز ودجاج الماء بطلقة واحدة. ولكن القسم الاكبر من هذه الطيور يصطاده المعدان بالشباك في الغدران الواقعة خارج منطقة الاهوار، ويبيعونه في المدن بعدئذ. ويستولي الهدوء والسكون في هذه الاهوار خلال موسم الصيف. وتكاد تكون قد هاجرت منها جميع أنواع الطيور، ولا يبقى هدفاً للصيد الا طيور البرهان[2] في حافات منابت البردي. ان هذه الايام هي

---

(١) راجع كتاب طيور العراق، تأليف بشير اللوس، صفحة ٣، ٤، ٧، ١١، ١٣، ٥٣، ٦١، ٦٢.

(٢) عثرت على اعشاشها في شهر مايس، فوجدتها تحتوي على ثلاث أو اربع بيضات.

أيام القحط في الاهوار ؛ فمناسيب المياه ما زالت عالية ، وصيد السمك ما زال أمراً شاقاً ، ومخازن الرز في بيوت القرويين قد أخذت تفرغ شيئاً فشيئاً . واصبح القرويون مشغولين الان بنثر بذورهم لزراعة محصولهم للسنة القادمة ، الذي يتطلب منهم ان يحرسوه من الخنازير الوحشية العابثة ، وهي كثيرة ففي خلال سنتين صدت ٤٨٨ خنزيراً ، اصطدتها في منابت البردي راجلاً أحياناً أو راكباً في مشحوف صغير أحياناً أخرى وقد استلقت نائمة على ضفاف القنوات الواقعة في حافات الاهوار . وقد استخدمت في صيدها بندقية سريعة الطلقات من نوع رگبي ٢٧٥ (275 Rigby) فوجدتها ذات أثر فعال . ان هذه الخنازير[1] (sus scrofa) هي من نوع الخنازير الهندية الوحشية ؛ وتتنوع كثيراً في ألوانها ؛ ومنها ما يكون شعرها طويلاً مائلاً الى الحمرة ، ومنها ما يكون قصيراً ورمادياً ، وكثير منها ملساء عارية ، وتكاد ترى وكأنها سوداء . وهي كبيرة جداً ، فقد بلغت زنة بعض ما صدت منها أكثر من ٣٠٠ رطل انكليزي . وتشيد لنفسها في منابت القصب الضحلة ملاجيء كبيرة من الاحراش على هيئة جباشة عرضها ستة أقدام وعلوها غالباً قدمان وأكثر ما تضطجع عليها اثناء النهار . وقد وجدت أنه حالما أعثر على أحد هذه الملاجيء فاستطيع عادة ان أعود اليه واقتل الخنزير عليه . ومن عادة هذه الخنازير حينما تضطجع على ضفاف فروع الانهار ان تجلب كمية من البردي وتشيد منها ملجأ مؤقتاً ترقد عليه حتى ولو كانت الارض جافة . وتتكاثر هذه الخنازير خلال شهري نيسان ومايس وتلد عادة اربعة أو خمسة على فرشة من القش . وقد زرت مرة قرية « العميرة » الواقعة في الاهوار الوسطية ، وأخبرني سكانها ان خنازير كثيرة تقضي ليلها دائماً في بعض البيوت المهجورة . وكانت هذه القرية محاطة بمياه عمقها ثلاثة أقدام تقريباً ، وتقع وراءها منابت كثيفة من الادغال والحشائش . وعند غروب الشمس جلست بقاربي على مقربة من احدى هذه البيوت المهجورة أترقب عودة الخنازير ، بينما كان القرويّون يحلبون جاموسهم ، ويوقدون النيران ويتنادون ويتكلمون في البيوت المحيطة بنا . وحينما أخذت الشمس تغيب اندفعت ثلاثة خنازير من الماء نحو القرية . فقتلت واحداً منها بعيار ناري حينما مرت أمامي بمسافة ٢٥ ياردة تقريباً . ثم تعقبنا الخنزيرين الاخرين في قاربنا فقتلناهما بعد صياح ورمي كثير . وبينما نحن عائدين الى القرية واذا ببعض الرجال ينادوننا قائلين ان خنازير أخرى قد دخلت تواً الى

---

(١) ان الخنزير الوحشي والخنزير الاوروبي الوحشي يرجع ان الى جنس واحد يعرف بـ sus scrofa. راجع قائمة :
List of Palearctic and Indian Mammals, by Ellerman and Morrison - scott, pp. 244-5.

بيت مهجور يقع بجوار بيوتهم وعلى بعد أربعة ياردات. وعندما نظرت الى داخل البيت المهجور انطلقت منه تسعة خنازير، فلحقناها وقتلنا منها أربعة. ولما كان المعدان مسلمين فانهم لا يأكلون لحم الخنازير [١]، ويسرون بقتلها كثيراً لانها تسبب لحاصلاتهم الزراعية أضراراً جسمية وتهاجمهم وتجرحهم حينما ينصرفون الى تقطيع سيقان البردي. وحينما ترتفع مناسيب المياه في الاهوار عالياً بسبب الفيضان تتجمع اعداد كثيرة من الخنازير على الجزر المغطاة بالقصب، ويقوم الشيوخ بين حين وآخر بتنظيم حملات لاصطيادها. فيجتمع المعدان في قوارب صغيرة، ويترجل بعضهم منها وينزل الى الجزر، ويحاول اقصاء الخنازير من هذه المناطق المليئة بالحشائش والادغال واقتيادها الى مياه الاهوار المفتوحة، ويتهيأ البعض الآخر لرميها بالفالات وضربها بالهراوات حتى تلفظ آخر انفاسها. وكثيراً ما تهاجمه الخنازير وتنزل به جروحاً بليغة. وحينما يبلغ الفيضان ذروته فان اعداداً كبيرة تهاجر من الاهوار وتتجه نحو حقول الحنطة والشعير، وحينما ينتهي موسم الحصاد تقصد بساتين النخيل وتستقر هناك.

وتكثر كلاب الماء في الاهوار. ويصطادها المعدان طمعاً في فرائها، وفي صغارها التي يدجنونها أحياناً. وقد استطاع احد المعدان ان يصطاد اربعين كلب ماء في غضون ثلاثة أشهر. وقد شاهدت قطط الغابات الهندية عدة مرات. حتى ان أحد رفاق السفر قد اصطاد احداها بفالته حينما كانت تعبر من مكان الى آخر في منطقة ماء مكشوفة. ويعيش النمس الايراني، في الجزر كما يعيش في الادغال والحشائش حينما تهبط مناسيب المياه في الاهوار هبوطاً شديداً. وتشاهد الذئاب وبنات آوى والثعالب في المناطق الواقعة حول الاهوار. وقد شاهدت مرة ضبعاً في ضواحي مدينة العمارة.

وتكثر الحيّاة في الاهوار، وتشاهد دائماً سابحة في موسم الفيضان. ولكنني لم أعثر على أحد قد أصيب بعضّة حية. وترهبهم الافاعي السوداء الكبيرة التي يسمونها «عربيد». والسلحفاة والرفش موجودتان بكثرة في الاهوار. ويقول پ. أ. بكستون وفي. أج. دبليو داوسن في رسالتهما «عرب أهوار جنوب العراق» ان الرفوش مشهورة بشراستها، وانها تنقض أحياناً على خصى السابحين وتأكلها. ولم أجد بين المعدان من يعيرها أي أهمية. وقد

(١) يستعمل المعدان مختلف اجزاء الخنزير لاغراض التطبيب والسحر. ويعتقدون ان استعمال مرارته يشفي عضة الافعى، وان الانسان يستطيع ان يشفى من مرض الرماتزم اذا ما جلس في جوف خنزير قد قتل حديثاً وأخرجت معدته.

يشاهد الكوسج في أعالي دجلة قرب مدينة العمارة ، وهو في منطقة العزير كثير وخطر . ولم اسمع عن وجوده في الاهوار .

لقد حاولت ان أصف المعدان وبيئتهم ، ولكن هناك أشياء كثيرة لم أتطرّق اليها ؛ أما لضيق الوقت أو لعدم توفر المعلومات اللازمة . وستنحسر المياة عن هذه الاهوار خلال السنوات القليلة القادمة ، وتختفي وراءها ثقافة معينة وطرق عيش خاصة بعد ان ظلت حية قروناً طويلة . وانني كغيري من الناس الكثيرين آسف لهذه القوىٰ التي تعمل علىٰ تحضير المناطق البدائية في العالم بلا رحمة ولا شفقة وتحويل ابناء العشائر الىٰ أناس عاطلين يتسكعون في مفترقات الطرق .

تعقيب :ـ

١ ـ تطلق لفظة المعدان عند أهل المدن في الفرات الأوسط والجنوب علىٰ أهل القرىٰ عامدةً ، وعند أهل القرىٰ في الجنوب علىٰ سكّان الأهوار خاصةً وهم معروفون عندهم بمناطق سكناهم وأصولهم ومهنهم ولهجتهم وسحنتهم المميّزة .

٢ ـ لم يتقيّد المترجم بنقل أسماء المناطق والأدوات والأحياء بحذافيرها ، ولعل مردّ ذلك الى الأصل الانجليزي ، فعادةً ما نقل الگـ كافاً والچـ جيماً ، أو حذف الألف كما في البرابْرة التي تحوّلت الى البربرة ، وقد تصرّفنا في قسم منها وأرجعناه الى لفظة المحكيّ .

٣ ـ اشتبه الكاتب فنسب الى طائفة المعدان ، قبائل عربية كبيرة تحيط بهم ، كانت وما زالت مستقرّة في الجنوب العراقي منذ الفتح الاسلامي ، ولم يفرّق بينها في قراها وبين من يُساكنها من المعدان أو يجاورها في قرىٰ منفصلة .

٤ ـ ينبغي أن يُشار الى ان الزنوج الذين ظنّ المترجم برجوع نسب البرابرة اليهم ، هم أساساً من العبيد المُولّدين من أصول افريقية جُلبتْ بالبيع الى المنطقة واشتراها الشيوخ والأثرياء ثم اختلطت بمرور الزمن مع السكان الأصليين بعد انتهاء عهد الرقّ وما زال قسمٌ من أنسالهم منتشراً في العراق الأوسط والجنوبي كما هو حال بلدان الخليج العربي (الموسم) .